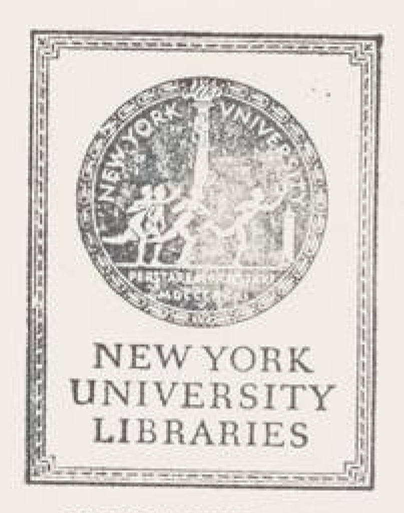
موطن الأحلام

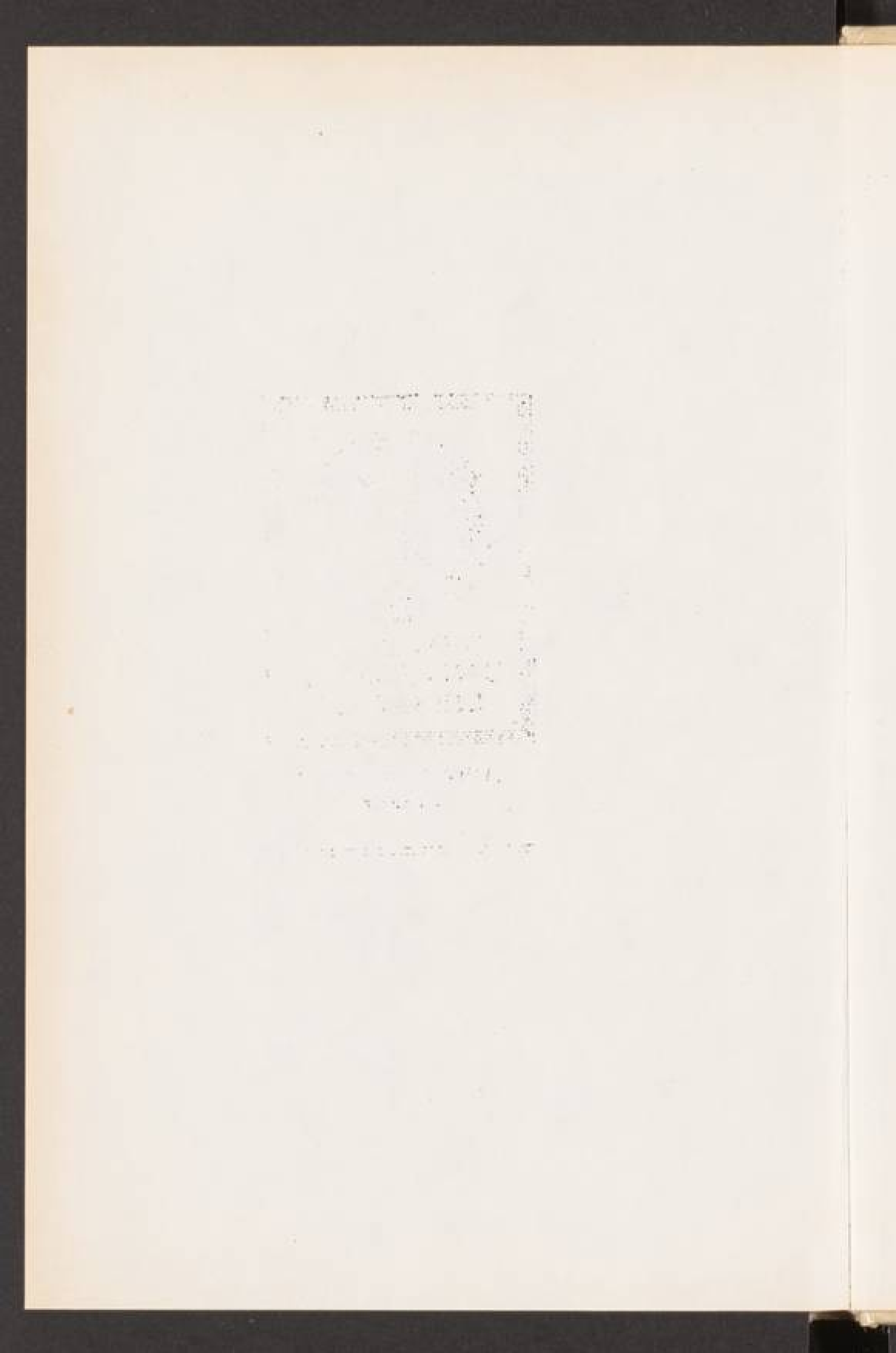
اسبانيا

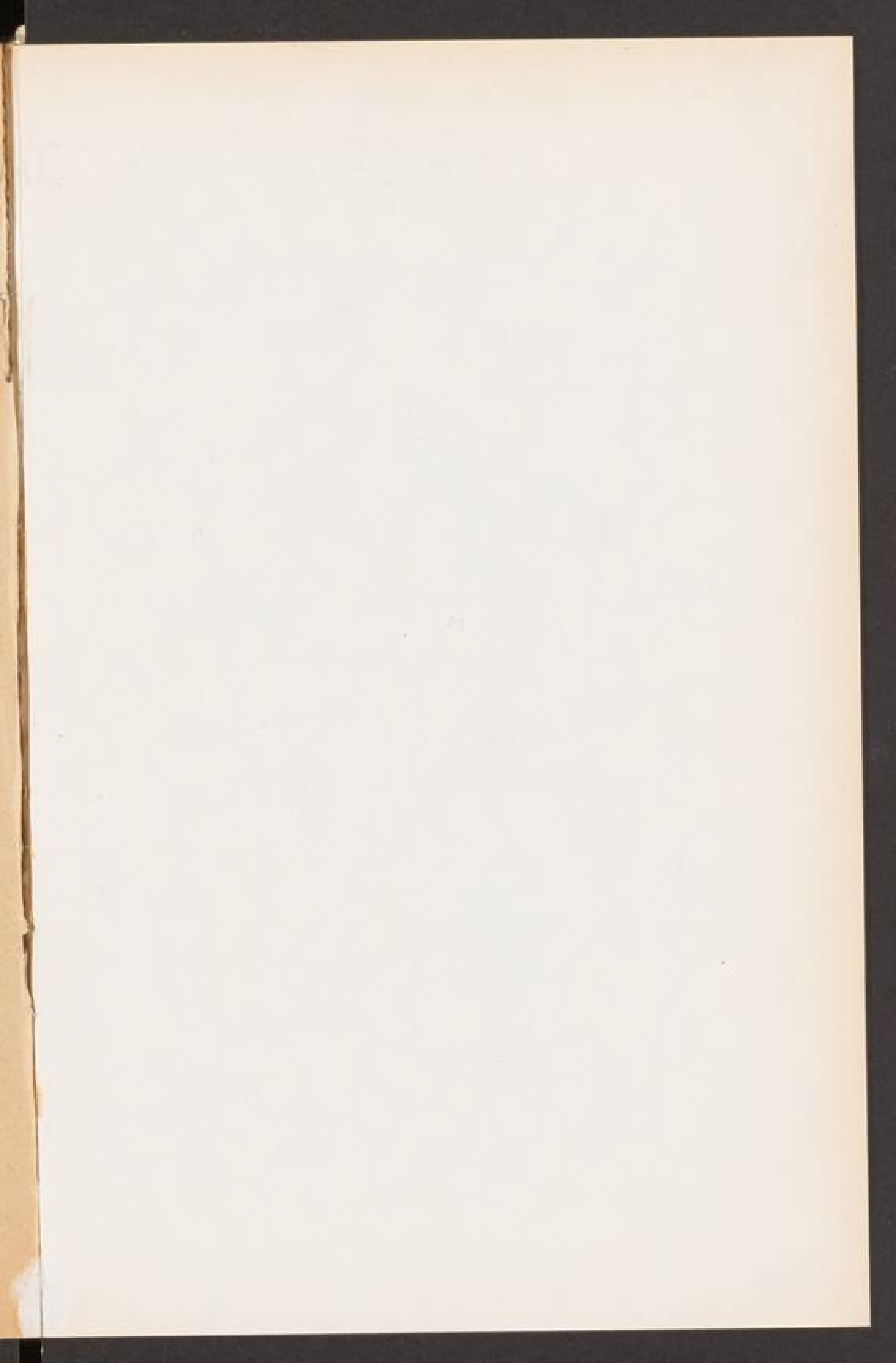
عماد الدين التكريتي





GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY





Takrītī, 'Imād al-Dīn

عماد الدين التكريتي

اسبانيا

موطن الاحلام

/Isbāniyā mawtin al-aḥlām/

N.Y.U. LIBRARIES

مطبعة العلوم والآداب

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م

كتب للمؤلف

من وحي طيبة

اسبانيا .. موطن الاحلام

احلام الربيع

قريباً :

سحابة فوق المتوسط	(رواية)
الحكماء السبعة	(دراسة)
بوذا .. الفيلسوف الانسان	(دراسة)
الشجرة والوادي	(شعر منثور)
الفن السوري المعاصر	(دراسة)

Near East
DP
42
T3
c.1

الصور من تصوير المؤلف

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الإهداء

صديقي بشير

في اللحظة التي كنت أفكر في إهداء كتابي الى الجند الذي تبرع براتبه والطالب الذي تبرع بقلمه والفلسطينية العجوز التي طلبت أن تتبرع بأواني منزلها.. والطفل الذي تبرع بحصالته سمعت خبر نعيك فلم أصدق أذني ولم أصدق الألوف التي بكتك وبكت زملاءك ضحايا الغدر الآثم ولكن لم أكد أستوعب الخبر وفكرت في شبابك ووطنيتك وفكرت في أخلاقك الطيبة وايمانك القوي وفكرت في آرائك الفياضة المؤمنة وفكرت في تلك اللحظات التي كنت تقول فيها « آه لو يتاح لي أن أطلق النار على اليهود الأنذال ».

فكرت في كل هذا وفكرت فيك وأنت تحرس الحدود تقاسي آلام البرد والوحدة لتدافع عن وطنك ثم فكرت في بطولتك التي تحدث عنها زملاؤك الذين قدر لهم أن يعيشوا ليصفوا للناس بطلاً من الأبطال الذين استشهدوا دفاعاً عن الوطن شعرت بأن حياتك لم ولن تذهب هدراً ... اننا سننتقم .. ان كل شاب في هذا الوطن قرر أن ينتقم وان ذلك ليس ببعيد.

بشير

إني أهدي هذا الكتاب الذي يحوي صوراً من صور أجدادنا العرب الى روحك الطاهرة، وفي عيني دمعة أنت وحدك تعرفها .. وفي عين كل مخلص دموع أنت وحدك تعلمها لذلك لست بحاجة أن أكتب كثيراً، إن ذكراك تؤلمني وتؤلم كل فرد مخلص في هذا الوطن العربي.

إني أهدي هذا الكتاب الى روحك الطاهرة : ثم الى روح أطهر من عرفت في حب هذا الوطن ...

الى روح الملازم الشهيد بشير الصفدي.

وانها لهدية متواضعة .. الشهيد وحده يعلم أني لا أملك سواها.

المخلص

عماد تكريتي

« لا تغترب عن وطن   واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغُصن إذا   ما فارق الاصل ذوى »

أحمد بن جبير الكناني

المقدمة

يدفعني لكتابة هذا الكتاب فئة غريبة من الناس كثر الجدل بيني وبينها عن تراثنا العربي وضرورة المحافظة عليه بكل وسيلة من الوسائل ... وعن طابعنا وكياننا الشرقي الذي يكاد يندمج مع قشور الحضارة الغربية فيشكل مزيجاً غريباً من متناقضات، تفقدنا روحنا كأمة لها تراث رائع وماض مجيد.

فئة غريبة من الناس تحبذ كل جديد دون تفكير ودون وعي، وتنبذ كل شيء من الماضي الرائع دون تفكير ودون وعي أيضاً، فالجديد المقبول يجدر بنا أن نقتبسه والماضي المعقول يجدر بنا أن نحافظ عليه وقد تعلمت هذا من اسبانيا .. حيث لا يزال الطابع العربي يضفي على الشعب الاسباني روحاً خاصة وطابعاً خاصاً ... حيث لا يزال القوم يفتخرون بتراث جميل رائع ولا شك بأن فخرهم بهذا التراث واعجابهم به دفعهم الآن الى محافظتهم عليه. فقد أدركوا الآن أن لغرناطة واشبيلية والأطابعلة وقرطبة قيمة بمقدار محافظة كل منها على طابعها الشرقي، هذا الطابع الذي يجلب الالوف من المتفرجين من جميع أنحاء العالم..

ونحن الآن في دمشق يدفعنا تيار غريب لتقليد الغربيين في أبنيتهم وأعمالهم وفنونهم متناسين بأن لنا حضارة يجدر بنا الاحتفاظ بها وان هناك مثلاً طرازاً للبناء العربي الصرف يجدر بنا أن نبني منازلنا على طرازه .. لكي نحافظ على دمشق وعلى الخيال الخصب الذي يجول في عقل كل من يسمع بهذا الاسم: دمشق ..

نعم .. تيار غريب من البناء المعاصر .. يمحو من الاذهان صور دمشق القديمة .. دمشق الشرقية .. دمشق ذات الطابع الخاص .. دمشق الرومانتيكية.

نعم .. تيار غريب يدفعني أن أقف أمام نفسي متسائلاً ..

هل سيكون لدمشق بعد خمسين عاماً طابع شرقي كما كان لها في مدى الأجيال .. أم أنها ستصبح مدينة عادية كغيرها من المدن الحديثة التي لا روح فيها ولا طابع .. إني أتساءل هل أعيادنا اليوم هي نفسها قبل أعوام وهل شهر رمضان اليوم هو شهر رمضان الأمس .. وهل ستشاهد دمشق ألعاب « السيف والترس » التقليدية وألعاب الفروسية التي كنا نشاهدها في « الجريد » في حي المهاجرين بدمشق ..

أسئلة أتركها دون جواب .. لأن كتابي برمته جواب لها .. فأنا من أنصار المحافظة على القديم .. القديم على قدمه .. وليقل الناس عن رجعيتي ما يشاؤون لأن اعجابي بدمشق القديمة أكثر من اعجابي بدمشق الحديثة ..

إن دمشق القديمة هي جزء من تراثنا يجب أن لا ننساه ولا ننسى المحافظة عليه كصورة لدمشق القديمة ، دمشق التاريخية وذلك كما تفعل بقية الامم الراقية التي تعمل بكل ما هو حديث .. إلا أنها لا تهدم القديم ..

إن كل من يشاهد اسبانيا يعجب ويحب طبائع أهلها وتراثهم المجيد .. انه يعجب باسبانيا لأنها لا تزال تحافظ على تراثها ولا تزال تبتهج بأعيادها .

ولا شك بأن في تراثنا العربي أشياء وأشياء رائعة نرجو الله أن لا ينساها الناس وخصوصاً في هذه الأوقات التي أصبح الناس فيها يلقبون من ينادي بالمحافظة على التراث القديم بأنه رجعي .

لا رجعية في الموضوع .. إن الأمة التي تحافظ على تراثها هي أرقى الأمم مادامت لا تنسى أن حضارتها القديمة هي جزء من حضارتها الحديثة وان الجديد هو استمرار للقديم لا انقطاع له ..

ان هذا الكتاب رغم أنه صورة لجولات في اسبانيا إلا أن الغاية منه احياء ذكرى العرب في الاندلس واعطاء صورة لهذا الشعب الاسباني الذي لم ينس ماضيه ..

هذا الشعب الذي أحببته من صميم قلبي لشهامته ونبله .. لقلبه الكبير الممتلىء

بالحب والغبطة والقناعة والألم .. الألم الصامت .. فان وراء وجه اسبانيا الضاحك وجهاً آخراً يبكي .. يبكي متألماً .. وانا لنرجو أن نكون قد وفقنا الى نقل صورة عن هذا الوجه الضاحك الباكي بعد أن اخترت الكتابي الاسلوب الذي كتبت به كتابي الاول « من وحي طيبـــة » . فلم أتكلف وأتصنع في الكتابة ، وانما كان رائدي البساطة في اختيار الجمل ، ولم أتحاش الحوادث الفعلية التي جرت معي في اسبانيـــا رغم نصائح بعض أصدقائي الذين قرأوا من وحي طيبة وأشاروا علي بأن أتحاشى الحوادث الواقعية والتي فيها شيء من الفكاهة كما يقولون .. لذلك أرجو المعذرة منهم لأني لم آخذ بنصائحهم وأرجو المغفرة من القاريء اذا ما وجد في بعض الأحيان أني أوجزت كثيراً في بعض الابحاث وان سبب ايجازي هو أن تاريخ العرب في الاندلس قد كتب عنه كثيراً ويستطيع القاريء الرجوع اليه بسهولة .. لأن هذا الكتاب ليس الا انطباعات شخصية عاناها المؤلف في اسبانيا . أرجو أن تعطي القاريء فكرة عن اسبانيا الامس واسبانيا اليوم .

وقد حاولت جهدي أيضاً الاستشهاد بما يقوله الأوربيون عن العرب في اسبانيا ، لأن ما يقوله العرب يكاد يكون مألوفاً لدى الاكثرية من القراء .

هذا ولم آبه كثيراً بمناقشة بعض المؤرخين المتحاملين على العرب الذين يشوهون الحقائق لأننا نعتقد أنه من السخف مناقشة فئة من الناس وضعت الضغينة والحقد أمامها قبيل ان تبحث عن الحقائق المجردة ..

هذا وانا لنرجو أن تكون هذه المحاولة لتشجيع القاريء على قراءة تاريخ العرب في اسبانيا ناجحة ...

دمشق في ٢ / ٢ / ١٩٥٦ — المؤلف



برشلونة — الرامبلاس

الى الاندلس

أيها الراكب الميمم أرضي ... أقر من بعضي السلام لبعضي

إن جسمي كما علمت بأرض ... وفؤادي وساكنيه بأرض

قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفوني غمضي

قد قضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي

عبد الرحمن الداخل
في رسالة الى اخته في دمشق



برشلونة ـ تمثال يريد ان ينهض

الى اسبانيا

يا ارض أندلس الخضراء حيينا لعل روحاً من الحمراء تحيينا
عادت الى اهلها تشتاق فتيتها فأسمعت من غناء الحب تلحينا
كانت لنا فمنت تحت السيوف لهم لكن حاضرها وسم لماضينا

ابي الفضل الوليد بن طعمة

الى اسبانيا... بل إلى الاندلس.. إلى البلاد التي خلدها العرب أبد الآبدين.. إلى الاندلس الخضراء عسى أن اشاهد صفحة رائعة من صفحات أجدادنا العرب الذين بنو الحمراء ليكون كما قال عنه الكاتب فرانك كارن: «كعبة يحج اليها الاوربيون ليشاهدوا ما بناه العرب ...».

نعم .. هذه المرة إلى اسبانيا .. بل الى الاندلس كما كان يسميها الاجداد .. الى الارض التي جعلها العرب ينبوعاً للعلم ومهداً لحضارة واسعة لا يزال أكثر تراثها مجهولاً حتى الآن وحتى من احفاد هذه الامة العريقة .. واني وإن كنت قد غادرت بلادي إلى اسبانيا لاكتب عنها لبني قومي لا أشك مطلقاً بأن الواجب يدفعني لان اذكر ماضينا في الاندلس .. هذا الماضي المجيد الذي جعل الاندلس تعيش الآن على ذكراه..

وذكرى القصور التي قال عنها شاعر التروبادور المجهول:

ستبني قلاعك في اسبانيا ..

وتحلم بالمرح ..

ولكن كل هذا ....

خيال ...

خيال ... نعم . بل واغرب من الخيال .. انها قصور في الهواء .. وقد بنيت قصوراً في الهواء أيام شبابي .. وحلمت بأن أسافر إلى اسبانيا لأشاهد قصوري..

وقد وجدتها ...
وجدتها في الاندلس ...
لقد بناها العرب .

* * *

دعنا نأخذ القطار الآن من محطة مرسيليا لنسافر إلى بورت بو .. الحدود الاسبانية ولنتخلص سريعاً من غلاء الاسعار في فرنسا ، هذا الغلاء الفاحش الذي يحق لنا أن ندعوه لصوصية أكثر منه بيعاً أو شراء ... دعنا نغادر مرسيليا سريعاً ... الى بورت بو ... إلى اسبانيا ...

حسناً الساعة السابعة مساءً ... الحدود الاسبانية ... كل شيء قد تغير الآن وفجأة ... ومنذ اللحظة الأولى التي تضع فيها أقدامك في الاراضي الاسبانية .. تشعر بأنك لست غريباً عن هذه البلاد فأهلها يرحبون بالغريب كما ترحب به في بلادك .. لذلك تجد نفسك بين اصدقاء منذ اللحظة الاولى ومنذ أن يبتسم لك موظف الجوازات الابتسامة الجميلة وهو يتأمل جوازك بهدوء ولا يجد اسمك فيه عندما يفتحه بشكل معكوس ظاناً انه جواز كتب باحدى اللغات الاوربية ويضحك عندما يكتشف الأمر وينادي زميله ليريه جوازاً يكتب بعكس الجوازات العادية التي يشاهدها كل يوم .

ولا تمضي لحظات .. إلا وتجد نفسك في المحطة .. المحطة التي تصلح لتكون مكاناً لتمثيل فيلم سينمائي ملىء بالدراما .. وملىء باداب المجاملة واللباقة .. فالحمال يبتسم لك مودعاً ، شاكراً لك المبلغ الذي أديته له مهما كان ضئيلاً .. ظاناً بأنك فقير مثله وتاركاً اياك مذهولاً في عربة القطار كما حدث معي ؛ ربما مع عائلة اسبانية وامرأة من السويد ... عائلة اسبانية يقول لك الأب عادة :

– أهلاً بكل من يأتي اسبانيا ..

وتقول الطفلة بعدها بصوت ملائكي :

– اهلاً وسهلاً أيها الآتي إلى اسبانيا ..

وبينما انت تصغي الى الطفلة .. لا تشعر ألا والقطار قد بدأ يتحرك . وتمضي لحظات وأنت تتأمل جبال البيرينه من نافذة القطار .. وتتأمل الريف الاسباني الذي يمر بك ..

إلا أن في عربة القطار طفلة جميله تستأثر بكل قلبك بلطفها ودماثة خلقها .

– سنيوريتا .. مساء الخير ..

– سنيور .. مساء الخير

وتبدأ الحديث مع والدها لتتعلم بعض الكلمات الاسبانية من فم اسباني .. ولكن كلا .. لا شك بأنه عندما فكرت بالذهاب الى اسبانيا فكرت أن تتعلم شيئاً قليلاً من لغتها لان الرحلة لاي مكان في هذا العالم بدون معرفة لغة سكان هذا المكان .. هي لاشيء . لان البلاد التي تشاهدها ليست الأبنية التي تتأملها.. لا وليست القصور التي تنشدها .. لا وليست الملاهي التي ترتادها وتقول أنك عرفت نساءها ... لا وليست الفيافي التي تشاهدها من نافذة القطار ... بل هي الشعب .. الشعب نفسه الذي يعيش محافظاً على تقاليده وتراثه ... الشعب الذي يشكل جزءاً كبيراً مما يجب أن يشاهده الانسان خلال رحلاته ... الناس .. هذه الخلائق البشرية التي تعطيك صورة عن الحياة الحقة والمجتمع الحي ، الشعب نفسه الذي يهمنا . هذا الشعب الذي بنى أجداده التراث الذي نعجب به .. هذا الشعب الذي لديه عواطفه وشعوره .. هذا الشعب الذي يعتبر تاريخه جزءاً منه .. وان بلاده بما فيها ليست الا طرفاً واحدة من اللوحة التي نشاهدها ، إذ أن الطرف الآخر ولا شك هو الانسان ... الانسان نفسه . ولن نستطيع أن نفهم الانسان دون ان نتكلم معه .. لذلك دعنا نتحدث مع الاشخاص الذين نجتمع معهم منذ اللحظة الاولى .. مع الطفلة الجميلة .

– سنيوريتا ... انت جميلة ..

– كراسيا سنيور

– من أي بلد أنت ؟
– اشبيلية ...
– هنيئاً لك ...
– كراسيا ... ولِمَ ؟ .
– ألا تعلمين المثل الاسباني : « كل من أحبه الله وهبه منزلاً في اشبيلية » .
وضحك والدها .. واستغرب معرفتي هذا المثل .. وبدأت صداقتنا معه بسرعة وتطورت هذه الصداقة إلى درس في لفظ اللغـة الاسبانية ثم إلى رقص وغناء من السنيوريتا الصغيرة ...
ويا له من رقص .. ويا له من غناء ...
كانت ترقص ببراءة مطبقة دروسها الاولى في الرقص بحركات كلها ادب وتعبير .. تعبير عن حبها لقطعة الشيكولاته التي تركتها من يدها لترقص . فعيناها لا تزالان تلتفتان إليها بين الفينة والفينة .. وأما غناؤها فكان تعبيراً رائعاً عن روح الطفولة البريئة التي تغني أغنية لوالدتها .. أغنية لم أفهم منها شيئاً ولكني تخيلتها وكأنها تغني مقطوعة لوركا .. شاعر اسبانية :

« أماه !
ليتني كنت من فضة
يابني ...
سيصيبك البرد ...
أماه !
ليتني كنت من ماءٍ ..
بني !
لن تكون في الدفء إذ ذاك ..
أماه !
طرزيني على مخدتك
نعم يا بني
وفي الحال ! » .

وفي الحال .. اغمضت الفتاة عينيها ثم تناولت قطعة الشيكولاته ..

ومضت هذه الساعات القليلة التي قضيناها حتى وصلنا برشلونه وكأننا في حلم قضيناه بين اغنيات الطفلة الصغيرة البريئة وأحاديث شجية عن الفتيات السويديات وجمال أجسامهن الرائعة .. مع السويدية التي كادت تفقد صوابها كلما تأملت الطفلة الصغيرة وهي تغني ..

انها روح الام ... فالله لم يهب السويدية بعد بنتا .

* * *

صور سريعة هذه التي حدثتك عنها منذ لحظات ، سريعة سرعة هذا الزمن الذي يمضي ..

الى أين .. لست أدري .. سرعة ربما جعلتك تستغربها ولكن هكذا الحياة ... وهكذا الرحلات في كل لحظة صورة جديدة .. وفي كل لحظه فكرة جديدة لم تكن متوقعة .. ومفاجآت غريبة تجعل المخططات التي وضعناها قبيل الرحلة تذهب ادراج الرياح .

الساعة تقارب الثانية عشرة ليلا .. ونحن في محطة برشلونة .. السويدية تقبل زوجها الذي كان ينتظرها قبلة رائعة . ولم يكن ينتظرنا احد .. وآسفاه .. سوى عمال الفنادق الذين التفوا حولنا بسرعة كل يعرض بطاقة فندقه .. واخترنا الفندق الارخص طبعاً ، وبعد مساومة طويلة عريضة .. قبلنا المكوث في الفندق الذي كان خير مأوى لنا في هذه الليلة بعد رحلة طويلة شاقة بدأناها من دمشق ..

تمر في مخيلتي وأنا في الفندق هذه الصور السريعة التي مرت بي منذ اللحظة التي ودعت بها دمشق ... تلك التجارب التي لم اكتب عنها شيئاً لان هدفنا الاول والوحيد هو اسبانيا .. الاندلس ..

نعم تتنزل إلى ذهني هذه التجارب فأشعر بأن الواقع في الحقيقة أغرب من

الخيال .. بل أغرب بكثير ... ماذا ! نحن في فنـدق من فنادق برشلونة نستريح لـكي نبدأ رحلتنا الفعلية ..

غداً صباحاً إلى أرض الاجداد... إلى جنوب اسبانيا .. وكأن هذه الايام التي قضيتها في البحر المتوسط لا شيء .. كلا بل انها تجارب واقعية رائعة ارجو أن أعبر عنها في يوم من الايام في كتاب خاص .. فالمعـذرة لابد لي مباشرة إلى اسبانيا ...

نعم ... المعذرة الآن ... ولنشاهد برشلونة غداً معاً .

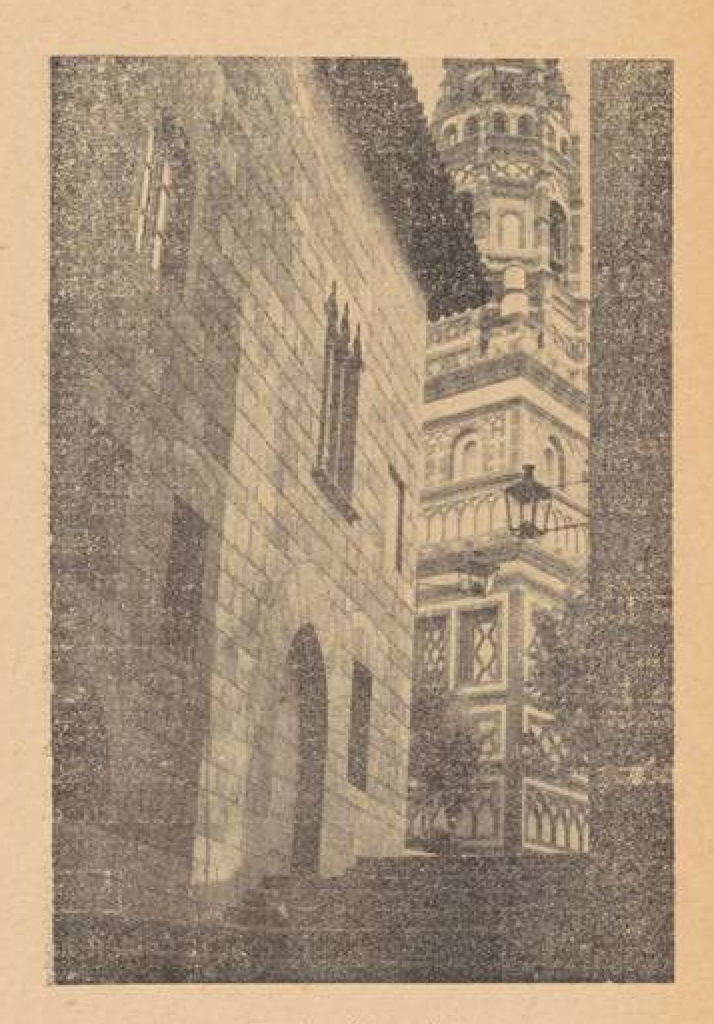


برشلونة ... صداقة ضاحكة

برشلونة

« هناك مدنٌ بنيت على السهول ... في الجبال وعلى السواحل .. بعضها له شكل تاج وبعضها له شكل القلاع ، وأخرى لها شكل الأفاعي وبعضها كالسفن أو النجوم ، قد يكون لون هذه المدينة أبيض أو رماديا أو ذهبيا .. بعضها يتدرج من الهضاب ويمتد مع السهل .. وبعضها له كبرياء يحتقر الأرض التي وهبتها حياتها ، فترتفع قلاعها ومعابدها وكأنه لا شيء آخر في احضانها ، بل انها تتعالى لتتشارك مع النجوم في السماء .. وهذا هو السبب الذي تكون فيه بعض المدن اكثر فخاراً من غيرها .. أو اكثر جوداً من غيرها .. ولكن روح هذه المدن تظهر في معالمها كما تظهر في الخلائق البشرية ... » .

جيمس ميرافيل
في كتابه برشلونة



في القرية النموذجية

المدينة الراقصة

« برشلونة ليست اسبانيا .. انها من كاتالونيا
عرق آخر ، يتكلم لغة خاصة وله طابع خاص »
سالتر

صوت يغني .. صوت عميق يتصاعد من النافذة المجاورة المسدلة الستائر ...

صوت يغني ...

ماذا يا ترى ... ماذا يقول هذا الصوت الجميل .. في هذا الصباح الباكر في حي من احياء برشلونة الضيقة المبـــنية على الطراز القوطي .. حيث يكاد المنزل يلتصق بالمنزل المقابل ..

ماذا يغني يا ترى ؟ ..

كلمات ... كلا .. بل عواطف .. عواطف مكبوتة تعبر عنها فتاة في هـذا الصباح الباكر ... عواطف بنت الجيران لابن الجيران أو لبطلها مصارع الثيران ... أو لزوجها الغارق في النوم العميق .. من يدري فالستائر المسدلة تحجب عن عيني رؤية صاحبة هذا الصوت الجميل .

ولكن الصوت لا يزال يتصاعد وكأنه يقول :

عندما يتبلج الصباح ..
وتستيقظ الطبيعة ...
أغني أغرودة الحب
لحبيبي المختار ..
ابن الجيران

. . .

لابن الجيران ..
اغني أغنية الحب
صباح ... مساء ..

عسى أن يستيقظ
ويسمعني أقول :

. . .

القلب في الانتظار ..
أيها النائم الغافل !
عن حقيقة الحياة .
القلب في الانتظار ..
القلب في الانتظار ..!

. . .

أيها الحبيب النائم
في غرفة الجيران
أنا لويزا أناديك :
القلب في الانتظار
القلب في الانتظار ...

نعم .. صوت غريب جميل يتصاعد من الغرفة المقابلة لغرفتنا صوت يغني .. حتى اذا قدر لك الاصغاء اليه تبادر إلى ذهنك صور جميلة للحب وتتخيل القطعة السابقه كما تخيلتها .

إلا أن الصوت صمت الآن وربما أجاب ابن الجيران النداء ...

* * *

نحن الآن في برشلونة وقد بدأت حياتنا فيها بالاصغاء لصوت جميل .. في هذه المدينة التي أحيط تاريخها بالاساطير وأقاصيصها بالضباب فأصبحت وكأنها مدينة أحلام يرتادها العشاق من كل مكان لقضاء بعض الوقت فيها ... ففندقنا غاص بالزوار من نساء ورجال كل له قصته وكل له آماله في هذا اليوم الجديد الذي يقضيه الزائر في برشلونة عاصمة الجنوب .. عاصمة كاتالونيا .

وكأني بهذه الفئة من الناس التي تأتي من كل حدب وصوب شعرت بأن الحياة الرخيصة في برشلونة (للأجانب طبعاً) تعطي الانسان فرصاً كبيرة في

الاستمتاع بوقته كما يشاء ضمن حدود امكانياته المالية القليلة ، فالعملة الأجنبية مرتفعة الأسعار ... تهب للسائح قوة شرائية تكاد تكون خيالية ، لذلك نجد السواح في كل مكان في المدينة .. كل يفتش عن غايته ..

لذلك دعنا نفتش عن غايتنا .. ولنذهب الى المدينة نفتش بين جدرانها عن الحياة .. الحياة بكل ما فيها من بؤس ومن شقاء .. بكل ما فيها من نعيم ومن رخاء ...

* * *

نحن الآن نتجول في احياء المدينة .. وفي يوم الاحد ... وفي شارع الرامبلاس Ramblas .. المحلات مغلقة فأصحاب المخازن التجارية محبون للنظام .. ويحبون الاستمتاع بيوم الأحد .. يوم الراحة .. الراحة لدى الجميع فالهم المادي والجشع للمال لا يوجد في مخيلة أفراد هذه الأمة .. لذلك نجد الناس يستمتعون بعطلهم كما يجب أن يستمتع بها الانسان .. ولا شك بأنه يجدر بعلماء النفس الذين يضعون قواعد لفن التراخي وعدم إزعاج الأعصاب أن لا يضعوا قواعد طويلة عريضة مصطنعة بل يزورون برشلونة ويشاهدون شارع الرامبلاس وكيف يجلس الناس في مقاهي الطريق يتأملون المارة دون القيام بأي عمل أو مجهود « ولا طاولات زهر » ولا « شدة كونكان » .. ليتأملوا المسنين من الاسبان الذين جلسوا على مقاعد الطريق صامتين وفي عيني كل منهم قصة أو بالأحرى قل تاريخ .. تاريخ مؤلم ! فالفقر المدقع الذي لم تفرضه عليهم الأقدار قدر ما فرضته عليهم الحروب السابقة جعلت من كل فرد منهم شخصاً متدينا ينتظر آخرته عسى أن ينعم في العالم الآخر بحياة أسعد من حياته الآن .. انه يحلم على أي حال وهو يجلس صامتا ربما منتظراً الغد ... الغد البعيد أو القريب .. الذي سينقله إلى العالم الآخر .. فقد سئم وأسفاه حياته الآن رغم انه يتمتع بنصيب من السعادة .. سعادة القناعة التي فرضتها عليه الظروف من طرف .. وفلسفته من طرف آخر انه ينتظر .. دعه ينتظر .. ولنسر الهوينا ...

ماذا هناك .. بائعات الورد في عطلة .. وورودهم الجميلة ليست في الشارع اليوم ... الشارع المشهور ببائعات الورود ...

دعنا نراقب حاملي الاعلانات وهم يسيرون برهة ثم يقفون .. دعنا نتأمل وجوههم ... هذه الوجوه التي تصلح للوحات فنان .. ولم لا .. فقد كانت ينبوعاً للالهام لفنان اسبانيا كويا ..

دعنا نسر اذا في هذا الشارع الطويل ثم دعنا ننتقل من شارع إلى شارع باحثين عن الكاندرائية التي يقولون عنها إنها من أروع كنائس اسبانيا .. ولكن الكاندرائية لا تهمنا في قليل أو كثير .. فليس فيها من آثار العرب شيء فالعرب لم يمكثوا في برشلونة كثيراً ليخلدوا فيها آثارهم .. إلا أن هذه الكاندرائية رائعة ولا شك .. ولم نكن نحلم اننا سنشاهد روائع فنية في متحف هذه الكاندرائية التي قطن بالقرب من أبوابها وعلى أبراجها جحافل من الطيور ترحب بالزوار الذين يدخلون الكاندرائية الصامته .. وكأني بهذه الكاندرائية وقد تحولت الى متحف فنون يزوره السواح من كل مكان ليشاهدوا صور المسيح والقديسين الموجوده في المتحف الخاص .. وكأني بهذه الكاندرائية وقد تحولت «موديلاً» للفنانين فكل يجد في احدي زواياها موضوعاً يرسمه .. وكل يجد في احدي غرفها ذكرى .. وأما نحن فلا شك بأن اشجار النخيل في ساحة الكاندرائية ... والبحيرة التي يشرب منها الناس ؛ والأوزات البيض يلتقطن ما يقدمه الاطفال كانت حافزاً لنا لنتذكر أن هذا الجو الهادىء الصامت ، في هذه الساحة هو جو شرقي ..

ونخرج من الكاندرائية مشبعين بما شاهدناه .. نخرج الى الشوارع النظيفة الواسعه الخالية نتأمل الابنية الأثرية من بعيد ففي كل بقعة نجد مكانا له اسم خاص في تاريخ المدينة وفي كل زاوية تكتشف تمثالاً فنياً جديداً يجلب اهتمامك ولا سيما تمثال ابيض رائع في ساحة كاتالونيا الواسعة التي ملئت بالطيور هذه الطيور الاليفة التي تقف على يد الانسان وكتفه وتلتقط الحب بوداعة من فمه .. بوداعة جميلة جعلتنا نتمنى أن تكون ساحة المرجة في دمشق مليئة بالطيور كذلك وجعلتنا نتمنى

أن تمكث الطيور الموجودة في الجامع الاموي في دمشق على الارض ولا تهرب الى الامكنة القصية كلما اقترب الانسان منها . . .

دعنا نذهب الآن بالترام إلى حيث أرشدتنا الفتاة الجميلة التي سألتها عن حديقة المدينة . هناك بين الورود والتماثيل بين المتاحف والبحيرات الهادئة هناك لنكتب قليلا من الشعر الى فتاتنا المختاره في دمشق

في هذه المكان . . في هذه الحديقة حديقة المدينة صور حية للروح الاسبانية التي تهوى الخيال وتهوي الطبيعه فهذه المقاعد الطبيعة التي يجلس عليها السكان تقدم اليك خير مكان للاستراحة والتأمل هنا حيث لانشعر بالظهيرة لان ظلال الاشجار تحجب عنك اشعة الشمس المحرقة .

لنغادر الحديقة . . الى حديقة اخرى . . الى حديقة الحيوانات حديقة الحيوانات الصغيرة ولنتأمل الماعز الذي جلب من سوريه والجمل الذي جلب من البادية والعصافير الدورية التي وضعت في اقفاص واسعة .

جولة سريعة . . بل وسريعة جداً فبرشلونة لاتهمنا كثيراً فهدفنا هو البلاد التي تدعى الآن بالاندلس هدفنا جنوب اسبانيا حيث ترك لنا أجدادنا تراثاً نرجوا أن نترك – نحن أبناء القرن العشرين – للاجيال القادمة تراثاً رائعاً مثله .

ولكن في برشلونه قرية نموذجية لبلاد اسبانيا يسمونها – Pueblo Espanole وهو مكان جدير بالزيارة حقاً فلنزره بعد الظهر إذاً .

لقد بني هذا البناء عام ١٩٢٩ ليكون نموذجا لأبنية اسبانيا وتقاليدها الشعبية ففي كل مكان طراز بناء لاحدى المدن وفي كل بناء تجد سكاناً من هذه المدن يصنعون بأيديهم ما اشتهرت به بلدتهم ولشد ما استغربنا ان نسمع اغنية لام كلثوم هنا . . . في قسم اشبيلية حيث يعرضون صناعة الجلود . . . وهنا دعنا ندخل لنسأل ولنشرب كأساً من الشاي مع اخواننا العرب الذين قدموا من مراكش للقيام بصناعة الجلود المشهوره في اشبيلية وان هذا لدليل واضح جلي ان سكان اشبيلية لا يزالون يستعينون باليد العربية الماهرة التي تصنع لهم الجلود . . جلود اشبيلية . . . ودعنا

نصغ إلى حديثهم وهم يلعنون فرانسا اللعنات الطوال لما تكيد لاخوانهم في مراكش المسماة حالياً بالافرنسية وهي عربية ولا شك) من سوء العذاب المشهور عن الحكام الاستعماريين ..

دعنا نتحدث معهم بالعربية نعم وفي برشلونة بالذات ونصغ إلى آلامهم عسى أن ننقلها إلى وطننا الذي يعلم سكانه ولا شك ما يقاسيه هؤلاء الاخوان من عذاب ..

وانها لفكرة جميلة طبعاً أن يكون في دمشق مكان كهذا فية نماذج حية لكل بلد من سورية .. معرض دائم منظم يزوره السواح كما زاروا دمشق الجميلة ..

اننا نسير بسرعة .. سرعة السائح الذي لا يتعمق بالاشياء ويكتفي بالنظر ويقول هذا شيء جميل ..

ولكن السرعة لا تنسينا أن نقول ان فكرة هذا المكان النموذجي رائعة يجدر بنا أن نقتبسها لدمشق ..

* * *

الى أين نذهب بعد ان شاهدنا القرية النموذجية .. الى الطريق الذي يسمح لنا بمشاهدة غروب الشمس وألوانه .. والذي يتيح لنا أن نشاهد المدينة الممتدة حتى البحر .. وكأنها تريد أن تمتزج به .. البحر الذي كان ولا يزال مسرحاً لصيادي الأسماك الاسبان ومغامراتهم .

نعم غروب الشمس في برشلونة .. وفي هذه المدينة التي بناها هاميلكار برقا .. والتي عاد اليها كريستوف كولومبوس بعد أن اكتشف العالم الجديد ليقص أقاصيصه على الملوك ... على ملوك هذه المدينة الغريبة التي يقضي سكانها وقتهم في اللهو والمرح طوال الليل فلنعد اذا الى المدينة .. لنجرب حظنا في الليل .. ولنشاهد برشلونة التي هي بحق باريز اسبانيا ..

* * *

الحي الصيني في برشلونة .. حي غريب في مدينة غريبة ... حي له أدبه الخاص وأساطيره الخاصة ، ولم أكن أتوقع أن اشاهد في هذا الحي باريز الثانية .. أو بالأحرى حي البيكال في باريز .. حيث الملاهي والخلاعة ..

والواقع أن هذا الحي هو حي الليل له رواده وله طابعه الخاص الليلي .. حيث تجد « المقاهي » وقد امتلئت ببنات الحان اللاتي يبتسمن لكل « زبون » .

حي يجد فيه الغريب ما يجد من صنوف اللهو الدنيء العابث وأجد فيه من المأساة المؤلمة ما أجد .. فما ذنب هذه الفتاة الجميلة التي اقتربت نحوي تطلب أن أقدم لها فنجاناً من القهوة .. عسى أن اتحادث معها قليلاً فيتحول الاحسان اليها الى صفقة .. وأسفاه .. إني لا أستطيع أن اصور امرأة بهذا الجمال وهذه السمات البريئة الطاهرة التي اكتشفتها بعد أن دخلت إلى قلبها كما شعرت ... آوه ما ذنب هذه الفتاة أن تكون « بنت طريق » ..

الفقر ..

ألا حلت اللعنة على الفقر .. وحلت اللعنة على المال..

الا تباً لكل ما يمنع الانسان من ايجاد قوته اليومي ..

وأسفاه .. أرجو من القارىء أن لا يبكي .. انها بنت شريفة تبيع نفسها لتأكل ..

ألا حلت اللعنة على الانسان .. الانسان الوحش الذي يشتري الانسان بالمال.

ان الحي الصيني .. هذا الحي الذي يجد فيه البعض رومانتيكية رائعة .. أجد فيه مأساة تبكي وتؤلم .. لذلك دعنا نذهب سريعاً .. بل وسريعاً جداً قبل أن نصبح وحوشاً .. !

ولكن إلى اين .. !

الى نادي بغداد ..

حيث يقضي الانسان ليلة من أروع ليالي اسبانيا ..

فهنا معرض للرقص الأسباني .. في جو شاعري .. وزعت الأنوار والالوان بشكل يطير بخيالك الواسع الى « بغداد » وليالي بغداد ايام هارون الرشيد .. ويطير بخيالك الى راقصات ألف ليلة وليلة وملابسهن الملونة والمشاق الأبطال .

فمن لحظة إلى أخرى تنتقل من الرقص في بلنسية إلى الرقص في جزر الباليار .. ومن رقص اشبيلية إلى رقص (المعلقة) ومن رقص غرناطة .. الى رقص قرطبة .. وهكذا ..

ولا شك بأن أروع رقصة هي التي دعاها المذيع برقصة كارمن ، والموسيقى لبيزية .. او رقصة الغجرية والقمر ..

اطفئت الأنوار .. وساد الصمت برهة وجيزة .. ثم عزفت الفرقة الموسيقية لحنا خرجت معه الغجرية .. الغجرية ذات الشعر الاسود الفاحم المتدلي حتى نهديها .. وذات الجسد الحيوي الذي يتحرك بتؤدة إلى الامام متتبعاً انغاماً خافتة .. وكانت الأنوار الخفيفة تلعب دورها في تحويل لون ردائها وبشرتها فيزداد جمالها جمالاً ..

وبدأت ترفع يديها نحو السماء مناجية القمر ولا شك .. تحرك يديها ببطء دون أن تتناسى الموسيقى التي تلهب جسدها فجأة وتبدأ بالرقص ..

كيف أصف شعرها الأسود وهو يتهدل ذات اليمين وذات الشمال .. كيف أصف يديها تحركها بنشاط غريب ... كيف أصف جسمها وهو يتحرك مع موسيقى كارمن لبيزية .. كيف ..!

لست أدري ..

ان وجهها الجميل الأسمر قد اصبح في عالم آخر .. انها ذاهلة وكأنه لا يوجد أحد سواها وسوى القمر .. ان الانوار لا تزال تزيد جمالها جمالاً .. ولا تزال تجعلها فتاة حالمة تحلم بعشيقها ..

وتتضاءل انغام الموسيقى فجأة وتنزوي الفتاة على نفسها في زاوية تكاد تكون مظلمة ويدخل غجري وهو يرقص مفتشا باحثاً فلا يجد شيئاً فالظلام أخفى الغجرية ...

ويرقص .. ويرقص . ويرقص .. صاعداً بنظراته تارة إلى السماء وتارة إلى الارض وكأن الله قد استجاب نداءه فأقبلت الغجرية ترقص وترقص وترقص طروبة بالفتى الذي يرقص معها .. وتزداد انغام الموسيقى ارتفاعاً ويزداد الرقص حيوية .. ويدخل راقص آخر يبحث عن ضالته فيجد الفتاة التي تنظر اليه نظرات اغراء عجيب متناسية أن هناك من يرقص معها ..

وتلعب العيون .. وتدب الغيرة .. الا أن الحب سرعان ما يعبر عن نفسه فيختطف الشاب الفتاة ويرقص معها .. ويرقصان .. ويرقصان .. ويرقصان بينما الغيرة

تنمو في الشاب الاول فيتقدم وقد تجلت الوحشية خلال عينيه ويقترب الهوينا نحو الشاب .. وتهرب الفتاة مذعورة الى الظلام ..

ويسود الصمت .. ويتقدم الشاب الغيور مدفوعاً بغيرته والشاب العاشق مدفوعاً بحبه .

وتبدأ الموسيقى بالعزف .. وكأن عاصفة على وشك الانفجار ..

وتبدأ العاصفة .. عاصفة من نوع جديد يستل كل منها خنجراً .. وتبدأ المعركة ..معركة على أنغام الموسيقى .. معركة بين الحب والغيرة من الذي سينتصر يا ترى .. العاشق أم الغيور .. أم القوة .. قوة اليد التي تحمل السكين .. السكين التي تلمع كلما ظهر النور عليها .. تلمع وهي تتحرك منذرة بالقتل ..

ومضت لحظات ..خيل إلينا أن هناك جريمة ستقع .. لولا رحمة الله ... فقد دخلت غجرية ثانية وفي عينيها لهيب الحب فوقفت بين العاشقين تدافع بصدرها الملتهب عن حبها .. حبها الاول .. وتختفي السكين رويداً رويداً .. سكين العاشق المسكين الذي علم أن الفتاة تحب فتاها الاول ..

وتمضي لحظات صامتة .. لا موسيقى ولا نور .. كل يقف في مكانه مترقباً .. بينما تتسلل من زاوية مظلمة الغجرية الاولى تأخذ السكين من يد العاشق وترقص واياه ..

لقد أرادت أن تثير الغيرة في قلبه .. يالها من مجرمة لا تعلم أن بذور الغيرة أصعب من سكين تسدد إلى القلب ..

ويرقص الغيور مع حبيبته الاولى ويرقص الجميع بعد أن أعيدت الخناجر إلى اماكنها وتدخل طائفة من الغجر فيرقصون معاً .. حتى اللحظات التي تتلاشى فيها انغام الموسيقى ..

ويسود الظلام الظلام الذي يختفي فيه الغجر وهم يصيحون Olé ... Olé .. له .. له ويعلو التصفيق والهتاف ويعود الناس من أحلامهم الى واقعهم .. مع الأسف .. ولكن المسرح لا يزال فارغاً ..

ويخرج المذيع .. ويقول بالاسبانية والافرنسية والالمانية والايطالية .

سيداتي .. سادتي .. رقصة جديدة من بالما ..
وهكذا دواليك .. حتى الصباح ..
بين رقص .. وغناء ...

الوقت يمضي دون أن يشعر الانسان .. نحن في الساعة الرابعة صباحاً .. وكأني أشعر وأنا أعود الى الفندق بأن متجولي الليل اكثر من المتجولين في الظهيرة .. وكأن الناس يقضون أوقاتهم في الليل بأكثر مما يقضوها في النهار .. فالليل في الطرقات ليل غير صامت .. فأنت تجد الناس في حركة وكأنهم ذاهبون الى أعمالهم أو إلى بيوتهم .. من يدري .. فما اكثر المشاق ..! المشاق الذين يعودون الى منازلهم بعد أن قضوا ليلهم في ملاهي المدينة .. وفي جوها الليلي الخاص بها .. جوها الليلي الذي يشبه جو باريس، باريس الليل، باريس الغامضة التي تضحك .. باريس الليل .. باريس الغامضة التي تبكي ..

* * *

برشلونة مدينة من المدن التي لا يستطيع الانسان أن ينساها حتى ولو زارها مرة واحدة وبسرعة فهي أنظف مدينة أوربية على ما أعتقد ويوجد فيها ما يطلبه الانسان من وسائل الترفية التي لا تدع الزائر عابر السبيل ان يتركها دون ذكريات جميلة . فسكانها من اللطف بحيث يجعلوك سريعاً تشعر وكأنك في منزلك بين أصدقاء يبادلونك الصداقة والشعور بالحب فالشخص الذي تسأله عن الطريق سريعاً مايلبي طلبك ويحاول ان يخدمك .. والفتاة التي تطلب منها أن تعلمك بعض الكلمات « العاطفية » سريعاً ما تعلمك وتلبي نداك طالما أن « نيتك صافية » وصاحب الفندق سريعاً ما يغير لك وجبة الطعام التي لم تألفها دون أن يطلب منك أن تتقيد بوجبات الطعام الرسمية . وكذلك الشرطي اللبق الذي يرشدك الى مركز البريد والى أي مكان تسأل عنه دون تأفف أو تردد .. فالجميع يعلمون أنك الآن لست زائراً في اسبانيا بل ضيفاً ... ضيفاً لا يتضايق منك أحد .. فالجميع يرحبون بك دون تردد لأنهم يشعرون بأن واجبهم يدعوهم الى اعطائك فكرة حسنة عن بلادهم التي تعاني الفقر .. وذلك دون أن يطلبوا منك شيئاً على الخدمات التي يؤدونها اليك .. فتشعر منذ اللحظة

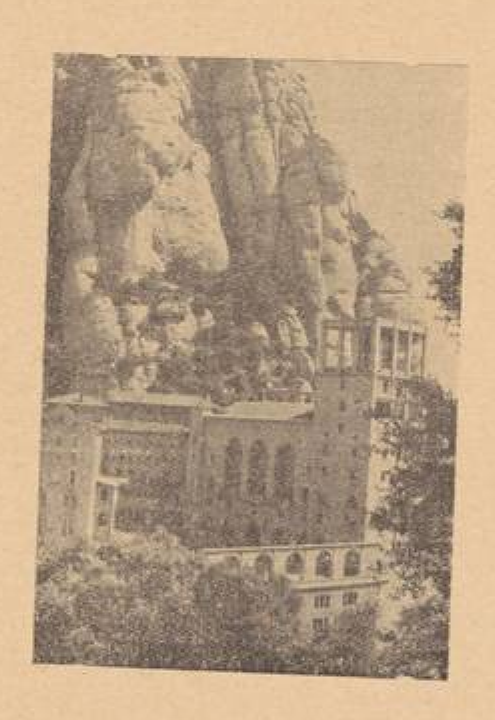
الاولى بأنك لست غريباً .. فلا تشعر بالوحدة والسأم .. ولا تشعر بأن رحلتك ليست الا روتينا رتيباً تمل منه بسرعة .. بل بالعكس تشعر أنك في كل لحظة تعاني تجارب جديدة لطيفة .. فهذا الشعب المحافظ على تقاليده العريقة يجعلك تستغرب وجود حي كالحي الصيني .. ووجود أماكن مقدسة لديهم يحترمونها ويصلون فيها .. فأنت إذ قدر لك مثلاً زيارة مدينة أوربية أخرى وشاهدت احدى كنائسها التاريخية لتجد أن السواح اكثر من المصلين .. بينما تجد في برشلونة وفي اسبانيا عموماً أن المصلين في الكنائس هم أكثر من السواح ..

انهم يشعرون بالدين وبقوته لذلك تجد أخلاقهم مهذبة . وليس هناك من دليل عظيم على محافظتهم سوى زيارتك الاماكن التي يحجون اليها ، وقد اخترنا منطقة « مونت سرات » القريبة من برشلونة لمشاهدة محافظة الاسبان على عاداتهم الدينية فلنذهب اليها معاً عسى أن نشاهد ناحية مهمة من نواحي الحياة لدى هذا الشعب النبيل الذي يحب البساطة في الحياة فلا تعقيد ولا تصنع .. ولا تمثيل ولا تشدق ولا شك بأن لوب دي فاكا ، شكسبير اسبانيا قد وصف هذه الروح الحقة عندما قال « الطبيعة كانت منوعة بالقليل ولكنها كانت كريمة معي - انها بقليل من الكتب ، وبضعة لوحات وحديقة فيها وردة او وردتين - أقضي وقتي بعيداً عن الحسد ، الشهوة ، الخوف أو الامل .. منتصراً على الثروة وخداع العظمة ومرحباً بالفقر .. لا أخاف الخاتمة التي هي اكيدة أو غير اكيدة .. محتفظاً بالفلسفة فأبقى بعيداً عن الجهل قدر ما أستطيع وأتحاشى بذلك شباك الغيرة والحسد » ..

نعم لقد عبر دي فاكا عن روح الفرد الاسباني عندما عبر عن نفسيته .. واننا لنرجو المعذرة من القارىء اذا ما شاهد في كتابنا تكراراً كثيراً لوصف الروح الاسبانية البسيطة الطبيعية .. لان التصنع في بيئتي وآسفاه قد أحرق قلبي ..

ليس هذا بالشيء الجديد طبعاً بالنسبة الى اسبانيا فقد عبر الفيلسوف الروماني سنيكا الذي كان اسبانياً عن هذه الروح في مقالته « الاسبانيون في تاريخهم » .. لقد عبر عن روح المرح خلال الفقر بقوله ..

« إن الذي لديه القليل ليس فقيرا ، ولكن الجشع هو الفقير ، لأن ضروريات الحياة قليلة .. وان لهؤلاء ذوي الطموح الغير مجدي نفوساً محدودة .. »



«مونت سرات» ...

أساطير في الجبال

يقولون عندما تكون في روما فاعمل كما يعمل الرومان .. والواقع ليس هناك أجمل من أن يعيش المرء الحياة التي يحياها سكان البلد التي يزورها .. وقد يكون هذا من الصعوبة بمكان إلا أنه ولاشك من الأفضل أن يلقي المرء نظرة ولو عاجلة على هذا الطراز من الحياة مبتعداً قدر الامكان عن الأماكن التي يرتادها السواح والتي بنيت خصيصاً لهم ..

ان مونت سرات مدينة مقدسة لدى بعض الفئات الدينية الاسبانية .. وان وجودها في موقعها الغريب ليوحي للمرء أنه من العبث أن يقال فقط أن هذه البقعة من الارض هي من أجمل بقع اسبانيا .. لأنها في الواقع من أجمل المناطق في هذا العالم وأغربها.. فلنذهب هناك معاً .. ونتأمل الاماكن التي قطنتها الاساطير .. والاديان ..

* * *

« أهلاً بك الى مونت سرات ..

ولكن نرجوك أن تتذكر أن مونت سرات هو مكان مقدس ولا شك بأنك تحب المحافظة على بيوت الله .. فنرجوك أن لا تجرح شعور المؤمنين بهذه المنطقة بألبستك الغير ملائمة (كالبنطلون القصير مثلاً) ..

نرجوك أن ترتدي ملابس متواضعة وتحافظ على شعور السكان .. »

بهذا الاعلان يستقبلك سكان مونت سرات.. وتجد الجميع فجأة يلبون النداء.. فالامريكية تستعير رداء زوجها لتستر يديها العاريتين قبل دخول المنطقة المقدسة.. والافرنسية ذات البنطلون القصير الملون الحائرة كيف تغير ملابسها لتزور أجمل

منطقة في اسبانيا .. لنزور جبلاً يكاد يكون قائماً ودبزاً عظيماً خطته يد الانسان في قمة رائعة ... دعنا نبدأ معاً متأملين بصمت المناظر التي تبدو من قمة سان جيرونيمو من ارتفاع ١٢٣٥ متراً .. صعدتها بصعد كهربائي دون عناء أو تعب ودعنا نتأمل المدرسة التي أتت من برشلونة لزيارة المكان ونتأمل رقصهم ونسمع الى غنائهم بين هذه الجبال .. دعنا نسر معاً من مكان الى مكان خلال الاشجار الباسقة ونشاهد الصخور التي لا نرى لها مثيلاً في هذا العالم الواسع .. ولنصغ هناك الى حفيف الاغصان يلاعبها النسيم .. فتردد أساطير أغرب من الاساطير .. أساطير مونت سرات ..

فمنذ قديم الزمان .. وقبل المسيح قطن محبو السلام والوحدة هذه المنطقة الشاعرية هاربين من اضطهاد الملوك .. مفضلين الطبيعة البكر على الحياة الاجتماعية الكاذبة ..

ومنذ قديم الزمان .. حج الناس لهذه المنطقة للبركة والشفاء مما جعل لها تاريخاً طويلاً غريباً يحتاج تدوينه الى كتاب كامل .. لا يسعنا ذكر شيء عنه في هذه الملاحظات العجلى .. الا أننا سنروي فقط القصة التي جعلت من هذا المكان مكاناً مسيحياً مقدساً ..

دخل الشيطان جسد الاميرة ريكيلدا .. الابنة الحسناء للكونت ويلفردو .. كونت برشلونة ولم تفد العلاجات المادية لها في هذا المرض الخطير .. فالشيطان يبدو أنه لا يتأثر بالعقاقير .. فأشار الناس على الأب الحزين ارسال ابنته الى القديس جوان كاري المشهور بفضائله بمونت سرات .. وأن تمكث الفتاة هناك حيث ستشفى بصلوات القديس ..

وانتقلت الفتاة الى كهف القديس .. حيث مكثت مدة طويلة خرج الشيطان من جسدها الجميل .. ودخل شيطان قديسنا المحترم الذي افترسها .. ثم قتلها ليخفي جريمته ..

ودفنت الاميرة الحسناء في كهف عميق في الجبل الهائل ..

ومضت لحظات عنيفة شعر القديس بأنه تحول الى حيوان غريب .. فندب حظه وبدأ يصرخ في هذه الوديان .. فلا يسمع سوى صدى صوته الوحشي .. وهو يهيم في البراري والجبال ..

ومضت الايام والشهور .. ووجد الحيوان نفسه بجوار روما ، ولم يكن هناك من وسيلة سوى أن يعترف الشرير الى البابا ..

وأصغى البابا اليه بهدوء .. وأجابه بأنه لن يصبح انساناً الا حتى يعفي الله عنه ويسمع الجملة التالية من فم طفل بريء :

« انهض كاري .. لقد عفى الله عنك .. »

وعاد الحيوان الى مونت سرات واصطاده في يوم من الايام صياد من صيادي الكونت وبلفريدو .. وقادوه حياً الى حدائق الكونت الحزين ..

وفي يوم من الايام .. مع شروق الشمس .. سمع صوت ابن الكونت يقول له ما قاله البابا :

— « انهض كاري .. لقد عفى الله عنك .. »

وتحول الحيوان الى انسان .. وقدم اعتذاراته الى الكونت الذي لا يستطيع أن يمسه بسوء بعد أن عفى الله عنه ..

وعاد القوم جميعهم الى مونت سرات .. حيث فتشوا عن جسد الاميرة .. ولشد ما كانت دهشتهم عظيمة عندما شاهدوا الاميرة حية تتنفس هواء الجبال ..

* * *

أسطورة ..

اسطورة من أساطير مونت سرات .. تلقي علينا قبساً مما يحيط بهذه المنطقة التي كانت مغمورة بمياه البحر المتوسط في العصور الاولى للتكوين الجيولوجي مما أدى الى وجود أشكال غريبة تكونت في الزمن الذي انفصلت جزر الباليار عن هذه المنطقة ثم أضافت العوامل الطبيعية الاخرى من حرارة شمس ورياح وغيرها تهذيباً جميلاً فخلقت أشكالاً غريبة التكوين مما أدى الى ان توحي كل صخرة

وكل حجر بشكل غريب .. شكل خاضع لسيكولوجية المرء الذي ينظر الى هذه الصخور فيتخيل ما يتخيل، إلا أنه مهما بالغ في التخيل فانه لا يستطيع أن يشاهد سوى ما يريد أن يشاهد ... صور أحب الاشخاص اليه ولا شك ..

ولكن سكان هذا المكان منذ أمد بعيد شاهدوا شيئاً عجباً ..

لقد شاهدوا عذراء مونت سرات ..

في كهف من الكهوف شاهد الاطفال نوراً عجيباً ينبعث... نور غريب ..

ماذا يا ترى .. ؟

انه نور العذراء ..

وشرح الاطفال الحادث الى قسيس المنطقة ..

وتأكد القسيس من صحة ما يقوله الاطفال ..

إذ شاهد صورة من أروع الصور ..

صورة العذراء ..

ونقلت الصورة من الكهف ..

إلا أن الكهان الذين قاموا بنقلها لم يستطيعوا السير فقد وقفوا في المكان الذي بني عليه المونا ستري الآن : .. الدير العجيب الذي يحوي تمثالاً للعذراء .. هذا الدير الذي يدخل اليه الناس أفواجاً أفواجاً صامتين .. فالصمت هو أول ما يشعر به المرء في الغرفة التي وضع فيها التمثال ..

والمجدود من الناس هو ذلك الذي يعود فيصغي الى موسيقى مونت سرات في هذا الدير .

موسيقى اسبانية قديمة .. قديمة قدم هذا الدير الصامت .. الذي يؤلف طرفاً واحداً من القصة .. قصة المدينة أما الأطراف الاخرى فيجب أن يدرس المرء قصة كل دير كي يحيط علماً بتاريخ المنطقة .. إلا أن المؤلف الكسول مثلي لا يجد ضرورة في هذه الدراسة العميقة .. كي لا يزعج نفسه كثيراً .. وخصوصاً في منطقة كهذه وجد فيها مصعد كهربائي ينقل المرء الى أعلى ارتفاع فيها ..

حيث يتأمل المرء منظراً من أروع المناظر الطبيعية الشاعرية التي تنسي الانسان التاريخ والاساطير وتدعه يعيش لحظات خالدة مع الطبيعة .. الطبيعة التي ازدادت جمالاً بوجود مدرسة للبنات في نزهة .. نزهه بلدية محضة أخذت كل منهن الحرية الكاملة لتغني وترقص غناء يحمل من قلبي المسكين قلباً لا أدري كيف أسميه .. وعيني اللتين تنظران الى رقص بريء .. عينين ذاهلتين حائرتين بين تأمل جمال الفتاة أو رقصها ..

واحسرتاه . في سوريا لم أشاهد منظراً كهذا ..

...

مونت سرات ..

يوم في مونت سرات هو في الحقيقة اسطورة بذاتة فأنا لا أكاد اصدق نفسي أني هنا .. ماذا يدفعني لزيارة هذا المكان .. سوى نفسي التي جلبتها معي من سورية تلك النفس التي تحب الوحدة .. فتنشدها في قمم الجبال هرباً من واقعها المؤلم ..

يبدو أن الانسان مها سافر ومها غامر لا يستطيع أن يهرب من نفسه التي يأخذها إلى كل مكان ..

فأنا هنا .. وكأني في قمم جبل الشيخ ، مغامر أفاق ... محب للمتاعب فان لم أجدها خلقتها ..

ألا حلت اللعنة على الشيطان ..

لماذا أهرب من نفسي .. فأنا رغم وجودي هنا لا أستطيع أن أتذكر كل من أحب في دمشق وأتمنى أن يكون معي إلا أن من أحب في دمشق لا يحب هذا النوع من الحياة .. الحياة الحقة لأن الناس هناك يحبون أن يجمعوا المال ويخزنوه ليتأملوه صباح مساء وكأنما المال أصبح هدفاً في هذه الحياة لا وسيلة للحياة وكأنما ادخار المال هو عمل اصطلح الناس أن يلقبوا مدخره بأنه من العقلاء وأن مبذره من الحمق .

وأنا هنا في مونت سرات أشعر بأن هؤلاء الحمقى هم الذين يعلمون معنى الحياة .. وأن العقلاء يذهبون وأموالهم الى حيث القيت رحلها أم قشعم دون أن يشعروا بأنهم يعيشون .. انها سيئة من مساويء بعض من احب في وطني وأعني

بذلك اكثر اصدقائي المدخرين واعز أصدقائي من المدخرين الذين لم يخرجوا خارج مدينتهم وحتى الى دمر لأنها تكلف كذا .. في يوم الجمعة يوم راحتهم .. هذا اليوم الذي اذا اشتغلوا فيه يربحون عشر ليرات سورية مثلاً . وأسفاه ..

انهم ليسوا معي الآن .. ليدركوا ان الحياة ليست في ادخار المال ..

وإن المال ليس المثل الاعلى في الحياة .. وليست مشاهدة مونت سرات هي المثل الاعلى في الحياة طبعاً .. إلا أني أحب اصدقائي واتمنى لهم ان يشعروا بأن للهواء الطلق قيمه لا تعادلها قيمة الدريهمات التي يجمعونها ..

غريب .. كاتب غريب يثرثر الآن وهو فيمونت سرات ويذكر هذا متناسياً القصص التي يجب عليه أن يذكرها للقارىء عن مونت سرات ..

ولكن وأسفاه هذا ما شعرت فيه في مونت سرات واحببت أن أدونه عسى أن أجد من بني قومي من يشتغل ليعيش لا أن يشتغل ليجمع المال ..

* * *

لقد مضت الحظات التي قضيناها في مونت سرات وكأنها حلم . حلم في اسبانيا وطن الاحلام.. إلا أننا نشعر حتى الآن بأننا لم نحقق حلمنا الاكبر .. وهو مشاهده أثار العرب في الاندلس .. فلنعد اذاً الآن .. الى برشلونة لننتقل منها الى مدريد .. ثم الى .. الاندلس ..

* * *

مدريد

عاصمة ارستقراطية

« لا تظهر مدريد نفسها دفعة واحدة ، إلا انها تفهم بسرعة إذا تأملتها عين دقيقة .. ان مدريد ليست بمدينة يمكن ان يتكلم عن هندستها قدر ما يتكلم عن خفاياها .
انها مدينة يتمتع النور فيها بنصيب من الروعة اكثر من اللون .. وتتمتع الاناقة بنصيب أهم من الجمال »

روانو في كتابة مدريد



مدريد – الحديقة

مدريد

ليس الحنين الى الوطن هو الذي يجعل خيالك يعود بك الى ذكريات مناظر رأيتها في وطنك وانما الارض التي يسير عليها القطار البطيء ليذكرك ببلادك فهذه الهضبة تذكرك بهضبة شاهدتها في سوريا وهذا سهل يذكرك بسهوك حمص وتلك عين ماء تذكرك بأبي زاد وهذه غابة تذكرك بكسب وهذه قرية مرتفعة تذكرك بعرنة ومياهها ولياليها ... وهكذا ... طوال الطريق . لان طبيعة البلاد لا تكاد تختلف مطلقاً عن طبيعة بلادنا إلا أنك عندما تصل مدريد المدينة الحدثة ذات الطابع الحديث لتجعلك تشعر بأنك أمام مدينة أوربية محضة ليس فيها أي طابع شرقي كغيرها من مدن اسبانيا .

انك لتشعر بأنك أمام مدينة تحتاج الى وقت كبير كي تتعرف إلى معالمها وتاريخها .. كعاصمة اختارها فيليب الثاني لان مركزها الجغرافي فقط وضعها في قلب اسبانيا ..

ماذا تشاهد في مدريد .. منذ لحظاتك الاولى ؛ ان كتب السياحة لتشير عليك بأن تزور هذا المكان وتتنزه في هذه الحديقة وتمكث في هذا الفندق .. وتزور هذا المتحف وتتأمل ذلك التمثال وبالا مجاز يحول لك كتاب السياحة هذا المدينة الى مكان شاعري .. لا يشعر به طبعاً الا عابر السبيل المتفرج .. أما الحقيقة والحقيقة مؤلمة دائماً .. فان سكان البلد نفسها لا يشعرون معك بهذه الشاعرية التي قد تشعر بها .

ولكن مدريد هي العاصمة ..

عاصمة اسبانيا ..

المدينة هي التي يحتاج الانسان الى وقت كي يفهم طابعها .. مرحها ، قلبها

الارستقراطي.. انها تحتاج الى وقت .. فحتى طابعها الحزين غير ممكن ان يفهم في لحظة حدس » .

ولكن اين الوقت لهذا السائح عابر السبيل الذي يسير خلال شوارعها دون دهشة ودون اعجاب فهي بنظره أو بنظري مدينة عادية ارتفع هنا وهناك اما كن يقولون عنها إنها أثرية ولكن حتى يحين الوقت الذي يفهم المرء قيمتها التاريخية يكون قد نسي كل شيء يتعلق بها في اللحظـــة التي يدخل فيها متحف الـبرادو .. لوفي اسبانيـا ...

مدريد برأيي متحفها .. البرادو فقط وربما أنا مخطيء .. بل أنا مخطيء حقاً ولكن مع كل هـذا مدريد هي متحفها .. الـبرادو .. فالقصور والأبنيـة والحدائق مها بلغت من «ارستقراطية» عظيمة فان ارستقراطيتها مستمدة ولاشك من تلك اللوحات التي رسمهـا فنانو اسبانيا الديمقراطيون ... ابنـاء الشعب في « قلبها الارستقراطي » لم تتعرف عليه والحمد لله لان قلوب للارستقراطين في نظرنا وبعد تجربة هي قلوب قاتلة مجرمة .. قلوب ميتـة لا تفهم من الحيـاة شيئاً سوى الارستقراطية المتصنعة الكاذبة .. فما فائدة الضخامة في البناء طالما أن الانسان.. الانسان ذا الشعور لا يشعر بالحياة الحقة والحرية الحقـة بين جدران هـــذه الارستقراطية الكاذبة ..

نعم .. مدريد .. مدينة أرستقراطية .. أين هذا من طابع المدن التي خلقها العرب في اسبانيا ..

أين .. لست ادري .

* * *

حسناً .. قد اكون مخطئاً لاني لا أحب المدن الكبرى والحياة في المدن الكبرى وذلك لأني أفضل الطبيعة الام على التصنـع ولاني أفضل اللوحـة التي رسمها الفنان بروحه وعواطفه على البناء الذي بناه الارستقراطي بماله ..

قد اكون مخطئاً في وصف مدريد .. وقد تكون اللحظة التي قرأت فيها أنها مدينة ارستقراطية قد أثرت في شعوري فلم أعد أملك الشعور الذي يتيح لي أن استمتع بها فأنا اكره الارستقراطية وما يتفرع عنها ..

لذلك دعنا نذهب الى البرادو .. « فمدريد » كما يقول عنها روانو .. مواطن وكاتب من سكانها : « ان مدريد هي لا شيء .. لا شيء سوى مدريد » .

وبهذا يعطيها صفة .. صفة واحدة كونها مدريد .. مدريد العاصمة . ولكن المدن الاسبانيــة الاخرى هي ليست مدناً فقط .. انهـا تاريخ .. انها حياة .. انها اسطورة .. اسطورة كاملة .. وحياة متدفقـة فياضة .. ولكن مدريد .. هي العاصمة .. رائعة ولا شك اذا استطعت فهمها أما أنا فلم افهمها .. هذه الشوارع المكتظة بالناس وهذه الابنية الضخمـة التي لا نظام في توزيعها وتلك الساحات التي تكاد تحيرك وتجعلك تفقد الطريق تلزمك بالتفكير في ان تذهب إلى مكان رومانتيكي فيه وجه اسبانيا .. الى البرادو ..

ولكن هذا ظلم وتعسف ..

ففي مدريد اماكن جميلة .. غير ارستقراطية ..

فحي القلمة ومقاهيه . يجعلك تقول مع الشاعر متسائلاً .

« Como Reluce, Como Reluce » .

كيف يلمع .. كيف يبرق ..

هذا الحي العظيم .

حي القلمة .

كيف يلمع .. كيف يلمع

عندما يتجول الاندلسيون .

غادين عائدين ..

نعم في مدريد أماكن رائعـة .. ولكن لن نذكر عنها شيئاً الآن لأن البرادو هو الذي دفعنا للاتجاه نحو مدريد وانه البرادو هو الذي محى من خيالنا

حالياً صور المدينة بكاملها لانه سيطر على شعورنا فلا تزال الظلال التي خلقتها اضواء الشمس المتسللة من النوافذ تسيطر على أفئدتنا .. ولا تزال الألوان التي تنبعث من اللوحات تتضارب في مخيلتنا ..

فلنبدأ بالبرادو .. اذاً طالما أنه كل شيء في رأينا .

. . .

البرادو .

أي حلم نحقق ونحن نسير بجوار نبع نبتون للفنان باسكوال دي مينا .. قبيل أن ندخل المتحف بلحظات .. هذه الاحصنة التي تكاد تندفع الى الامام بنبتون هذه المياه التي تتدفق .. هذا المنظر الذي كاد يأخذ بشعورنا فيجعلنا تحت عجلات سيارة تمر بجانبنا ..

لا نزال في الواقع .. ويجب أن ننتبه لشارات المرور ..

فلنسر الهوينا اذا .. ولنقف لحظة أمام تمثال كويا .. ولنتأمله جيداً انه آية من آيات الفن الرائع .. ثم .. ثم لنتذكر انه بالقرب من هذا المكان الموقع الذي اعتاد ان يجتمع به العشاق « من غير اليوم » .

اننا الآن أمام باب البرادو .. نبتاع تذكرة الدخول .. ثم أواه حلم آخر يتحقق ..

نحن في البرادو .. وأمام لوحة من أروع لوحات موريللو .. وتعود بنا الذكري فجأة .. آه الى وطننا سورية ..

ولكن لماذا هذه العودة .. ونحن نتكلم عن البرادو .. ونحن في البرادو .. لماذا لا نبدأ بوصف لوحات تيتيان وروبنس وريبيرا .. وموريللو .. وكويا .. والكريكو .. اننا نعجز عن الوصف .. وليس في مقدورنا التحليل لان الذكرى كانت عنيفة .. ولأن وطننا أحب الينا من البرادو ..

لقد تذكرت الفنانين السوريين .. وتذكرت الشحناء التي بينهم وتمنيت من صميم قلبي أن يشاهدوا البرادو .. أن يشاهدوا الفن في وطنه عسى أن يخلقوا لأنفسهم جواً جديداً من العمل والابداع كي يستطيع شاب مثلي أن يتذوق

الفن العالمي بعد أن يتذوقه في بلاده .. فالمرء مها بلغ من ضعف في ثقافته الفنية مثلي لا يستطيع إلا أن يتذكر بلاده والفن فيها .. وهو يشاهد هذه اللوحات الخالدة ..

فهذا الفن الذي ينتجه أولاً وأخيراً الانسان ذو الشعور والاحساس بالجمال لا شك بأنه هو نفسه سواء أولد في اسبانيا أو ايطاليا او سورية . لان الروح الانسانية موجودة في كل فرد في هذا العالم ..

في هذه اللحظة شعرت بسيطرة الانسان على نفسه وفي هذه اللحظة لم أعد أؤمن بما يدعيه الفنانون السوريون بعدم وجود اكاديمية يتعلمون فيها وكأني بهم وقد نسوا الاكاديمية الكبرى التي يعيشون فيها .. وطنهم .. البلاد الجميلة التي ولدوا فيها والتجارب المنيفة سواء أكانت مؤلمة أو مبهجة التي عانوها .. وكأني بهم وقد نسوا روحهم التي هي أكاديمية كاملة فبدأوا يجدون الاعذار ويخلقون المبررات كي يتلهوا بنقد بعضهم بعضاً وقتل بعضهم بعضاً ناسين أن مركب الفن يحتاج إلى عمل ونشاط اكثر مما يحتاج الى نقد وتهديم ..

اننا في البرادو .. وأحلامنا والحمد لله واسعة وأملنا أوسع كي يكون لنا برادو في دمشق .. وسيكون بأذن الله .. لأن الأمل في الفنانين السوريين الآن أوسع منه في الماضي ولأن روحهم الوثابة ستتغلب على جميع الصعوبات والعوائق التي أمامهم .. وسيعملون ويعملون كي يأتي ذلك اليوم الذي نسمع فيه بان الآتي الى دمشق يزور دمشق لمشاهدة لوحات فنانيها التي تعبر عن حياة البيئة التي يعيشون فيها ..

ولم لا .. فالله كريم .. وروح فنانينا متوثبة .. والمستقبل ليس ببعيد .

* * *

اننا في البرادو الآن

واننا نزور البرادو لنتأمل وجه اسبانيا .!. لنتأمل الروح الخاصة التي عبر عنها الفنانون الاسبان فخلدوا خلال لوحاتهم صوراً عظيمة لتاريخهم وروحهم

وتقاليدهم فطبعوا اسبانيا بطابعها الخاص مما يجعلنا نقول أن الفنان العظيم يطبع في بعض الاحيان المدينة التي عاش فيها بطابعه.. يطبع المدينة برمتها بطابع خاص كما سنشاهد في طليطلة التي من مزاياها أن الكريكو الفنان عاش فيها والتي يحج اليها بعض الناس ليشاهدوا في اي منزل عاش الكريكو مثلا . وفي الواقع نجد ان من يزور باريز يزور الجوكوندا فقط.. واننا لنرجو أن يزور السائح دمشق في يوم من الايام ليشاهد لوحات فنانيها . كما نحن الآن نشاهد البرادو هذا المتحف الفني كاللوفر مزيناً باجمل اللوحات الزيتية التي رسمها اعاظم فناني العالم من روبنس وتيتيان وموريللو وريبرا وفالاسكيز والكريكو وكويا هذا الأخير الذي كنا نبحث عن لوحاته في كل زاوية من المتحف لاعجابنا به وبحياته. فمن لوحة الغسالات ذات الألوان الرائعة الى صورة تاريخية لليوم الثاني من ايار الذي شاهد الفصل الاول من الحروب النابليونية .

وأما المايا المتسترة والعارية فهما لوحتان ينقلاك الى عالم الشعب الاسباني والى طابع الاشخاص العاديين الذين لاجمال في وجوههم . ومن الغريب أنه لا يوجد في الفن الاسباني لوحات عارية مما يذكرنا بالفن السوري أيضاً . ولنتأمل لوحة الرؤيا الفانتاستيك واية رؤيا تعبر عن خيال الفنان العظيم . ! ثم لوحة الساحرات اللاتي أرجو أن لايقع الانسان في سحرهن ثم لنشاهد صورة الفنان بريشته التي تستطيع ان تقرأ حياته برمتها . . حياة فنان اصم عاش في عالمه .

ان البرادو كنز عظيم من كنوز اسبانيا جمعه الملوك بالتدريج حتي أصبح من اعظم متاحف العالم برمته . . فهو قائم بذاته لاينازعه منازع في عالم المعارض التي تحوي لوحات زيتية تمثل المدارس الايطالية والمدارس الاسبانية .

ان البرادو رغم استيعابه للوحات من عظماء فناني العالم فهو يحوي لوحات لفنانين لم اسمع بهم مطلقاً وربما ذلك لجهلي بالثقافة الفنية . الا ان لوحات هؤلاء المجهولين من الروعة بحيث تستحق ان تعرض في البرادو . . وانه لمن المؤسف حقاً أن لانشاهد في هذا المتحف لوحة لفنان سوري وكأني بالفنان السوري يموت وتموت لوحاته في نفسه، دون أن يعلم بها أحد او يطلع عليها أحد .

وفي البرادو ايضاً تماثيل جميلة الا انها لاتضاهي التماثيل الموجودة في اللوفر رغم وجود تمثال «امرأة ألش» التاريخي الذي يصور المرأة الايبرية على اروع مثال.

* * *

يحتاج البرادو الى ايام معدودات لزيارته كي يستوعب الانسان ما به ويحتاج الكاتب عنه الى مجلد ضخم كي يصف مافيه الا ان حظنا السيء دائما لايسمح لنا بأكثر من زيارة واحدة قضيناها في ذكريات وتأملات لاتتعدى سوى ذكريات حزينة لانه لايوجد في دمشق بعد «برادو».



مدريد — في البرادو

مدريد برأيي هي البرادو ولكن بنظر غيري هي غير البرادو وغير التماثيل واللوحات والذكريات فلنشاهدها اذاً كما يشاهدها كل امريء ولنتجول في شوارعها عسى ان نكتشف لانفسنا شيئاً جديداً يلقي لنا قبساً على تاريخها البسيط الغير مهم.

* * *

يتجول المرء في مدريد.. وكل ما في مدريد «قصور» او فنادق دعيت قصوراً او منازل سميت قصوراً.. ولكنها قصور بالنسبة إلي او بالنسبة الى الفندق الذي قطنت فيه في حي من احياء المدينة القديمة حيث يستمتع المرء بالاصغاء الى اصداء رنين الفلامنكو والى اصوات اطفال الحي الاسبان يلعبون ويصرخون ربما لعبة «الابطال والحرامية» التي يلعبها اطفالنا في سورية.

ثم .. يتجول المرء في مدريد مفتشاً عن آثار العرب فلا يجد شيئاً سوى في منطقة القصر الجديد حيث كان يوجد قلعة قديمة عربية ويعود تاريخها الى عام ٩٣٩ .. اقدم تاريخ لهذه المدينة اذ ليس في تاريخ هذه المدينة اقاصيص قديمة وتاريخية ففي الواقع لم يكن لمدريد اهمية كعاصمة سوى في السنوات الاخيرة بعد انتهاء الحروب الاهلية الاسبانية عام ١٩٣٩ حيث بدأت المدينة تظهر الى الوجود ثانية . . رغم ان فيليب الثاني كان قد قرر ان تكون هذه البقعة عاصمة منذ عام ١٦٠١

وذلك بعد ان بذل عدة جهود من الناحية الاقتصادية كي تكون مدريد اعظم من برشلونة .. وكان من نتيجة هذا المجهود ان اصبح عدد سكان العاصمة حسب الاحصاآت الاخيرة حوالي ١،٦٠٠،٠٠٠ نسمة بينما سكان مدينة برشلونة ١،٥٠٠،٠٠٠.

وبديهي ان ازداد البناء في المدينة بشكل واضح فأصبحت الابنية الجديدة تطغي على الابنية القديمة.

وخلال جولات المرء في المدينة بين هذه الابنية خصوصاً في الظهيرة يوافق هذا المرء على قول من وصف مدريد بأنها « تسعة اشهر شتاء وثلاثة جهنم »

نعم فصيف مدريد هو جهنم . وكأنما ادرك فيليب الرابع هذا فأوجد حديقة الريتيرو التي هي في الواقع من أعظم حدائق اوربا العامة فبحيرتها وطرقها المظلله بالاشجار تقدمان للزائر خير مكان للاستراحة والتخلص من الحر الشديد . . ورغم ان هذه الحديقة اصطناعية كالمدينة الا أنها حديقة جميلة لمدينة جميلة .

ومن الاماكن التي يجب على المرء زيارتها مكتبة المدينة الوطنية العامة التي تتيح للناس المطالعة في اوقات فراغهم، والتي تتيح للزائر تأمل تماثيل أعاظم رجال وكتاب اسبانيا .

ان مدريد الان مدينة سياحة ويستطيع الزائر ان يجد في أي دليل الاماكن التي تستحق الزيارة الا ان تلك الكتب التي تشير على المرء ان يشاهد هذا المكان وتلك الحديقة ليست في رأيي الخاص سوى كتب تعطي الخطوط الاولى لما يجب

على المرء عمله في مدينة كبرى كمدريد واما اذا تتبع المرء حرفياً هذه الكتب فانه بذلك يشاهد المدينة كما يشاهدها مؤلف هذا الدليل . . . لذلك من الافضل ان يفتش المرء بنفسه في المدينة فان تجارب زيارته الاولى ستكون اروع منها فيما اذا سار بالنسبة للمخطط الذي رسمه غيره لذلك فان جلسة في مقهى من مقاهي مدريد هي تجربة جميلة يشاهد منها المرء الحياة الشعبية لسكان هذه المدينة وان جولة في احياء مدريد القديمة ، في حي ساكر ومونته مثلا لتعطي فكرة عن الحياة ايضاً في هذه المدينة الكبيرة .

ان الكنائس منتشرة في المدينة ولكل منها قصة وتاريخ ليست من موضوع هذا الكتاب ، الا ان الزائر مهما كان مذهبه الديني يصبح لديه « هوس لمشاهدة الكنائس » لان مدريد او بالاحرى اوربا مليئة بهذه الكنائس التي تحفظ قسما كبيراً من تاريخ كل بلد . .

ان زيارة مدريد العاصمة يجب ان تكون هدفاً قائماً بذاته الى كل من يزور اسبانيا لانها رغم ارستقراطيتها مدينة مليئة بالكنوز الفنية سواء اكان هذا في مكتبتها وشوارعها وسواء في قصورها الملكية او منازلها الارستقراطية الا انها مها باهت فهي ولا شك تباهى بضواحيها . . هــــذه الضواحي التي تباهى ايضاً بان كل من يزور مدريد فغايته هي الضواحي اولا وآخراً . . غايته طليطلة والاسكوريال وطبيعي ان نختار طليطلة للعلاقة الكبرى التي تربطها بتاريخ العرب في اسبانيا فلنذهب اليها بعد هذه الجولة السريعة في مدريد . . لنذهب اليها بالقطار البطيء الذي يذكرنا بقطار الزبداني ايام الصيف . . القطار الغاص بالركاب الذي يقلك الى طليطلة مع العائلات الاسبانية التي ترحب بك وتغني لك ولنفسها الاغاني الشعبية التي تعبر عن روح مرحة حزينة . . روح الحب الحزين

هذا الغناء الذي يقلك الى عالم شاعري آخر لاتشعر به الا في اسبانيا وطن الحب والغناء . . . وطن الحب والاحلام

فالى طليطلة اذا . . الى طليطلة . . .

طليطلة : مدينة الفنان

« توجز طليطلة كل تاريخ اسبانيا الغريب باسلوب حي،
فالشخص الذي يزور باعتناء زواياها ومداخلها يستطيع
دون مساعدة ما أن يشاهد الفوارق الغريبة التي يمكن
ان يقدمها التاريخ » ،

ج . ي . ستريت

أشاعر يسير الهوينا بجوار التايكوس : نهر طليطلة .. أم عاشق ولهان يرى خيال حبيبته في انعكاسات المياه .. أم من يا ترى ..؟ إن خيمته بجوار النهر يتأمل المدينة كما أتأملها .

أمسية ..! وأية أمسية مليئة بلحظات من تلك اللحظات التي تمر في حياة الانسان دون أن ينساها . يخيم الصمت على الطبيعة ، وانا اجلس على الحشيش الأخضر والاطفال لا يزالون يسبحون في النهر والشباب والشابات لا يزالون يسيرون الهوينا يتأملون لون الغيوم الحمراء التي تجلل القصر ، والكنائس المديدة تقرع أجراسها فترسل صدى عميقاً كصدى دقات الكنائس في القدس صباح عيد الميلاد .

ويتلاشى صوت الصدى العميق ببطء ولم أعد أسمع شيئاً سوى خطوات وئيدة صامتة تقترب نحوي ..

خطوات فتاة ..

وساد الصمت وأنا أنظر إلى طيفها يقترب مني فتبينت فيها فتاة أعرفها .. فتاة وحيدة صامتة وكأنها بطلة الشاعر الاالذي اسباني يصفها وهي تسير في شارع الميراديرو .

ودائماً عند الغسق ..

وحيدة .. دون صديق .



طليطلة .. في الطريق

امرأة متحجبة .

تذهب حتى هضبة ميرادرو .

لتطل على السهول .؟

وكانت الفتاة ابنة صاحبة الفندق الذي قطنت به . الفتاة التي عرفتني بطليطلة وبروح طليطلة ..

— مساء الخير .

— مساء الخير

— الطقس جميل والغيوم جميلة ..

— نعم

— لقد أتيت لافتش عنك فقد نسيت والدتي أن تقول لك أن اليوم هو « عيد كارمن » لقد أرسلتني لاصطحبك ولنشاهد سكان المدينة يسيرون في موكبها ...

— شكراً ولكن هل من الممكن أن نمكث قليلاً هنا ثم نذهب .

— لا مانع فالموكب لم يبدأ بعد .

وجلست بالقرب مني .. ثم عاد الصمت الى سابق عهده . وبدأت انظر إلى الغيوم بينما تركتها تحلم بعشيقها .

* * *

تبدو المدينة من بعيد كقلعة بنيت على صخرة واسعة بشكل شبه جزيرة تتصل بطرف آخر من الارض، بالقنطرة الرائعة التي لا تزال المدخل الرئيسي الى المدينة منذ أن بنى الرومان مدينة Toletum طوليطم . قبيل الميلاد بألفي عام ومنذ أن أعاد بناؤها محمد الأميري حاكم طليطلة في ايام المنصور .

وتحت القنطرة يسير النهر هادئاً ولونه الغريب يوحي الى النفس بصور شتى ، وكأن تغير ألوانه من اصفر الى أحمر لتذكر المرء بدماء الرومان والقوط

والعرب والمسيحيين الممزوج بهذا النهر . ويسمع صوت النهر الحزين الذي يساعده حفيف بعض الشجيرات على الانسجام مع نغم غريب لموسيقى حزينة .

وخلال هذا المنظر وهذه الالوان بدت المدينة الصامتة رهيبة حقاً وكأن رهبتها ناتجة عن تصوري لتاريخها الغريب فهنا ـ وربما على ضفاف هذا النهر حيث أجلس الآن ـ وبخ موسي طارقاً لتقدمه في الفتح دون رأية وهو قائده ..

وبينما أنا مستغرق في تفكيري على صوت الاجراس فقالت الفتاة ...

ـ لقد بدأ الاحتفال .. دعنا نذهب .

فنهضت ناظراً نظرة وداع الى الهضاب والنهر والمدينة ..

أي منظر رائع اجبرت على مغادرته لمشاهدة موكب غريب لم أسمع به ..

وبدأنا السير نحو المدينة .. ومررنا بالقصر ثم بلغنا بعد لحظات ساحة طليطلة الرئيسية زوكودوفار Zocadover أو ساحة البر « القمح » كما كان يدعوها العرب .. حيث ولدت اللغة الاسبانية كما يقول مؤرخو تاريخ اللغة .. وحيث كانت تجري مصارعة الثيران .. حيث صارع فيليب الثالث والرابع الثيران على ظهر حصان .. وهنا حيث كان الكهان يقولون للناس إن المسيح ليس ابن الله ..

وهنا ايضاً وأسفاه كانت ساحة الاعدام ..

ومن هذه الساحة بدأنا السير من زقاق ضيق الى زقاق أضيق ..

وكان الدليل رائعاً رهيباً ..

نقاط الشموع على احجار الطريق .. وكأنها دموع هؤلاء الذين يسيرون في الموكب ..

وكان الموكب يسير متألفاً من عجائز المدينة .. حاملات الشموع ... شموع الدموع ..

دموع .. ربما .. دموع كارمن اسبانيا .. التي عاشت فقيرة .. ولكن شريفة ..

* * *

وكان الموكب رهيبا بصمته وبحزنه .. حتى طبعني بطابعه .. ربما مدى

الحياة .. طابع الحزن .. الحزن العميق ..

إن الموكب يسير ولم أسأل الى اين وانما بدأنا نسير الهوينا مع المتفرجين الى الكنيسة حيث جلس القوم يصلون بخشوع ويعبرون بذلك عن طابعهم الديني العميق .. طابع اسبانيا المتدينة التي تعرف معنى الله .. في ملكوت السموات..

كانت الكنيسة مضاءه ولم تدخلها للازدحام .. وانما عاودت السير مع الفتاة الى المنزل لأطل من نافذته على المدينة الخالدة ..

* * *

وفي الليل يجول في ذاكرتي قصه هذه المدينة وتاريخها الغريب .. فمن كاتب يصل تاريخ المدينة بتوبال الابن الكبير لنوح إلى اخر يقول أنه عندما خلق الله الشمس جعلها تشرق أولاً فوق طليطلة ..

انها لمدينة رومانتيكية اسطورية حقاً فقد كانت مسرحاً رائعاً لعظماء العرب والاسلام فمن ذا الذي لم يقرأ الحلل السندسية للأمير ارسلان ولم يعجب ويكبر قضاة طليطلة ومؤلفيها ، فلكيها ورياضيها ، شعراءها ومحدثيها ، متصوفيها ومعلمي القرآن فيها .. رحالتها وخطباء جوامعها ..

نعم من ذا الذي لم يجل مؤرخيها ونحاتيها .. فلاسفها ومقرئي القرآن فيها .. !

من ذا الذي لم يستغرب وجود هذه الكنائس والجوامع .. هذه الأديرة والقلاع في بقعة غريبة نائية ..

من ذا الذي من المؤرخين لم يفكر في الطاولة العجيبة التي أخذها طارق من طليطلة ..!

فمنذ ذلك اليوم الذي كان الحد الفاصل في تاريخ الاسبان وفي تاريخ التوسع العربي .. منذ ذلك اليوم الذي نبتت فيه فكرة احتلال اسبانية من قبل العرب.. كانت طليطلة المسرح الاول للقصة الاولى التي كانت سبباً في فتح اسبانيا ..

فقد طلب الكونت يوليان مساعدة العرب .. بعد أن ارسل ابنته الحسناء فلورندا الى طليطلة .. إلى البلاط الملكي كي تربى هناك .. والتربية اللائقة بالأميرات ، بنات الملوك ..

وكانت تربية !

فقد اغتصبها الأمير رودريك الذي أصبح فيما بعد ملكاً ..

ولكن البنت الشريفة لاذت بالفرار ..

فقد اكتشفت بعدفوات الوقت أن الأمراء والارستقراطيين هم أنذل الناس وأحقرهم شرفاً ..

ولم تجد بداً من الفرار .. لتعلم أباها النبأ المؤسف ..

نبأ التربية الراقية في منازل الملوك والامراء .

وقرر أبوها الانتقام .. في اليوم الأول الذي اغتصب رودريك العرش ..

وبدأ يتصل بالعرب .. الذين لبوا نداءه ..

وبدأت قصة من أروع قصص الفتح العربي ..

فقد دخل طارق هذه المدينة .. وانتظر فيها موسى .

وقد فتحها طارق ..

ومضت الايام والسنون بعد فتحها .

وقال لوبون جملته المأثورة :

« لم يعرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب .. » .

* * *

ولم يعرف التاريخ فاتحاً أحب حرية الرأي باكثر من العرب فقد وجد في هذه المدينة كما وجد في قرطبة قديساً لايؤنب رعيته على قلة ايمانهم قدر مايؤنبهم على تفضيلهم الشعر والنثر العربيين على قصص الآباء والقديسين

فقد ترك الحكام الحرية للناس كي يختاروا مايشاؤون . .

الحياة .. طابع الحزن .. الحزن العميق ..

إن الموكب يسير ولم أسأل الى اين وانما بدأنا نسير الهوينا مع المتفرجين الى الكنيسة حيث جلس القوم يصلون بخشوع ويعبرون بذلك عن طابعهم الديني العميق .. طابع اسبانيا المتدينة التي تعرف معنى الله .. في ملكوت السموات..

كانت الكنيسة مضاءه ولم تدخلها للازدحام .. وانما عاودت السير مع الفتاة الى المنزل لأطل من نافذته على المدينة الخالدة ..

* * *

وفي الليل يجول في ذاكرتي قصه هذه المدينة وتاريخها الغريب .. فمن كاتب يصل تاريخ المدينة بتوبال الابن الكبير لنوح إلى اخر يقول أنه عندما خلق الله الشمس جعلها تشرق أولاً فوق طليطلة ..

انها لمدينة رومانتيكية اسطورية حقاً فقد كانت مسرحاً رائعاً لعظماء العرب والاسلام فمن ذا الذي لم يقرأ الحلل السندسية للأمير ارسلان ولم يعجب ويكبر قضاة طليطلة ومؤلفيها ، فلكيها ورياضيها ، شعراءها ومحدثيها ، متصوفيها ومعلمي القرآن فيها .. رحالتها وخطباء جوامعها ..

نعم من ذا الذي لم يجل مؤرخيها ونحاتها .. فلاسفها ومقرئي القرآن فيها .. !

من ذا الذي لم يستغرب وجود هذه الكنائس والجوامع .. هذه الأديرة والقلاع في بقعة غريبة نائية ..

من ذا الذي من المؤرخين لم يفكر في الطاولة العجيبة التي أخذها طارق من طليطلة ..!

فمنذ ذلك اليوم الذي كان الحد الفاصل في تاريخ الاسبان وفي تاريخ التوسع العربي .. منذ ذلك اليوم الذي نبتت فيه فكرة احتلال اسبانية من قبل العرب.. كانت طليطلة المسرح الاول للقصة الاولى التي كانت سبباً في فتح اسبانيا ..

فقد طلب الكونت يوليان مساعدة العرب .. بعد أن ارسل ابنته الحسناء فلورندا الى طليطلة .. إلى البلاط الملكي كي تربى هناك .. والتربية اللائقة بالأميرات ، بنات الملوك ..

وكانت تربية !

فقد اغتصبها الأمير رودريك الذي أصبح فيما بعد ملكاً ..

ولكن البنت الشريفة لاذت بالفرار ..

فقد اكتشفت بعدفوات الوقت أن الأمراء والارستقراطيين هم أنذل الناس وأحقرهم شرفاً ..

ولم تجد بدأ من الفرار .. لتعلم أباها النبأ المؤسف ..

نبأ التربية الراقية في منازل الملوك والامراء .

وقرر أبوها الانتقام .. في اليوم الأول الذي اغتصب رودريك العرش ..

وبدأ يتصل بالعرب .. الذين لبوا نداءه ..

وبدأت قصة من أروع قصص الفتح العربي ..

فقد دخل طارق هذه المدينة .. وانتظر فيها موسى .

وقد فتحها طارق ..

ومضت الايام والسنون بعد فتحها .

وقال لوبون جملته المأثورة :

« لم يعرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب .. » .

* * *

ولم يعرف التاريخ فاتحاً أحب حرية الرأي باكثر من العرب فقد وجد في هذه المدينة كما وجد في قرطبة قسيساً لايؤنب رعيته على قلة ايمانهم قدر مايؤنبهم على تفضيلهم الشعر والنثر العربيين على قصص الآباء والقديسين

فقد ترك الحكام الحرية للناس كي يختاروا مايشاؤون ..

وقد اختاروا الشعر والنثر العربي على القصص الديني . .

هكذا كانت الحرية التي بثها العرب . . الحرية الى الجاهير ان تفضل ماتشاء وتختار ما تشاء . . .

ولم لا فقد تعلم القوم من المكتبات الموجودة هناك . . المكتبات التي لم يسمع التاريخ بمثيل لها . . فاي مدينة صغيرة في العالم برمته كان فيها سبعون داراً للكتب . . . الا يحق لي ان اتساءل !

والا يحق لي ان أردد ماقاله ج . ب . ترند في مقاله في كتاب تراث الاسلام عن الحرية . . . حرية المرأة خصوصاً قال:

« لقد تمتعت النساء في ظل الامويين في الاندلس بنصيب وافر من الحرية وحظ كبير من الاعتبار اكثر مما كن عليه في ظل العباسيين في بغداد »

ليت المرأة الآن تتمتع في الشرق بنصيب من الحرية وحظ من الاعتبار . . كما تمتعت به المرأة في اسبانيا في عهد الامويين . .

ام ان المرأة في الشرق اليوم لاتستحق هذه الحرية لانها لاتفهم معناها . . لست ادري أهي خطيئة النساء ياترى . . أم الرجال . . أم المجتمع !

* * *

العرب هم الذين جعلوا من هذه المدينة مسرحاً للتاريخ فمنذ يوم ٢٥ مايس من عام ١٠٨٥ أي منذ اليوم الذي دخلها الفرنسو حتى الآن اصبحت طليطلة مدينة عادية رغم انها عاصمة اسبانيا الدينية ورغم ان عدد سكانها لايتجاوز ٤٢،٠٠٠ نسمة

لقد دخلها العرب عام ٧١٢ وسكنوها مايقارب من ٣٦٣ عاما كانت من اروع عهود هذه المدينة . . ولكن بعد خروج العرب منها لم تعد شيئاً . . سوى انها اصبحت مدينة سكن الملوك فيها . . هؤلاء الذين لا أذكر منهم أحداً ولا اكتب عنهم شيئاً لانهم لم يكتبوا للانسانية شيئاً هؤلاء الذين لا اكاد أتذكر من اسمائهم شيئاً قدر ما اتذكر الفنان العظيم الكريكو . . . هذا الفنان الذي تجد في كل زاوية من زوايا متاحف المدينة وبيوتها لوحة له . . الفنان الذي بنى البيوت وبنى الكنائس واضفى على المدينة جواً من الحياة والفن لم يقدمه ملك من الملوك .

ولقد تضاءلت قيمة المدينة منذ اللحظة التي تركها العرب فأصبحت مدينة تاريخية فقط ومن اعظم مدن العالم علماً وأدباً فقد قطن المدينة سرفانتس وكتب فيها أحد كتبه وذلك في منزل سيفليانو Sevillano المبني في القرن السابع عشر وترجم منها كثيراً من الكتب اللاتينية والاغريقية ..

الا ان آثار العرب فيها لا تزال خالدة وهي التي تعطيها هذا الطابع الآن: رغم ان جوامعها قد تحولت الى كنائس

مساجدها كنائس! أي قلب   على هذا يقر ولا يطير

واسفاه...

* * *

في طليطلة أمكنة يحج اليها محبو الفنون فزائر كنيسة سانت تومة في الحقيقة يزورها ليشاهد اروع لوحة في هذا العالم: لوحة وفاة الكونت اورگاز...

ويزور هذا الزائر بيت الكريكو، البيت الذي عاش فيه ملوك سحرة وأحرقه ملوك مرده وبناه ملوك عظماء.. يشاهد المرء متحفاً رائعاً لصور فنانين من جميع انحاء العالم... يشاهد الغرف التي رتبها الفنان وعاش فيها... الغرف البسيطة المنظمة.. يشاهد الاستدبو.. في الطابق العلوي.. ويشاهد ايضاً الحديقة الرائعة وزهورها الجميلة..

ورغم كل هذه الروعة فان طليطلة اليوم ليست الاصدى لطليطلة الامس العربية.. ليست الامرآة لما بناه العرب فيها.. ففي كل حجر يشتم المرء رائحة الفن العربي وفي كل بيت يدخله يذكره بدمشق القديمة وبيوتها العربية الرائعة..

فمن كنيسة القديسة ماري البيضاء St. Mary La Blanca التي هي درة من درر الفن المراكشي الى كاتدرائية ضخمة تحولت مع مدى العصور الى تراث في ضخم فمن أبواب يقف المرء أمامها متعجباً.. الى لوحات تعود به الى تاريخ بناء هذه الكنيسة منذ القرن السادس عشر الى زوايا كان العرب يصلون فيها يوم الجمعة فقد كانت الجامع الرئيسي لهم.

أية رهبة يشعر فيها الانسان في هذا المكان وخصوصاً عندما يرفع برأسه نحو

السقف والجدران ويتأمل اللوحات الرائعة . . ثم يتخيل الناس الذين جلسوا في كل زاوية من الزوايا في مدى القرون الماضية . . ويصغي الى موسيقى الصلاة التي لاتخلو من أصل عربي . . ولم يخب حدسنا فقد قال البروفسور ستاركي الذي كتب عن اسبانيا عدة مؤلفات . . ان جدران كاندرائية طليطلة لاتزال تسمع بعض أصداء الموسيقى العربية . .

ثم أي لوحات هذه . . التي رسمها جوردان . . والكريكو . . والخ من فنانين وأية ذكريات تمر في مخيلة المرء عندما يخرج من هذه الكاندرائية ليزور أطراف المدينة حيث تبعثر في اطرافها بوابات تذكر المرء بأساطير غريبة فمن بوابة الشمس التي هي جوهرة في الفن العربي الى بوابة البساكر ذات الاسلوب العربي ومن جامع نورنيراس الى جامع مسيح النور الذي يعتبر أحد الاعمال العظيمة التي قام بها الفنانون العرب

ومن المدهش حقاً أن أساطير عديدة أو قل قصصاً عديدة حكيت حول هذا المكان ، منها أنه في عهد الملك اتانكيلدو (في القرن السادس عشر) كان يوجد في الكنيسة صورة للمسيح المصلوب ، وأراد اليهود كعادتهم في كل مكان وزمان سرقة هذه الصورة كي ينسى مسيحيو المدينة مسيحهم ودينهم . . فذهب اثنان منهم لسرقتها تحت جنح الظلام كي لايشاهدهم أحد . .

الا أنهما لم يكادا يلمسان الصورة ويحركاها من مكانها حتى سالت قطرات من الدم دون أن يعلما شيئاً عنها أو عن مصدرها . .

وفي الصباح كانت الدماء خير دليل ليعلم الناس المكان الذي اخفيت فيه الصورة ويعلم مكان سارقيها المجرمين

ان هذه القصة هي احدى القصص التي حيكت حول هذا المكان وكم من قصص ذكرت عن أماكن عديدة في هذه المدينة . .

* * *

وأما المستشفيات المليئة بالكنوز العربية والاثرية كمستشفى سانت كروز Santa Cruz de la Mendoza التي فيها مجموعة رائعة من التراث العربي .

تجبر المؤلف على الوقوف ملياً عن الكتابة ليفكر اين يبدأ وأين ينتهي لان في طليطلة يختار المرء الاشياء التي يجب ان يسجلها ويشاهدها ، لان المدينة مليئة بتراث ضخم والاختيار أصعب من الاستثناء .

ومن الغريب حقاً ان نذكر ماذكرناه عن طليطلة دون أن ننوه عن القلعة المسماة Alcazar التي كانت قلعة من قلاع الرومان والقوط والعرب والتي جعلها الفونسو العاشر بيتاً للملوك هدم عام ١٩٣٦ وخرائبه الآن متحف وطني.. تصور.. متحفاً وطنياً يزار كل يوم .



طليطلة .. في معمل المصنوعات الدمشقية

وقبيل ان نودع طليطلة يروق لنا ولك أن نتجول في الليل معاً : في ظلام الليل مع أحد سكان المدينة الذي كان خير دليل في هذا الظلام الدامس وفي هذه الطرقات الوعرة وخير محدث عما يشعر به من فقر مدقع . وخير مغن ينشد لك أغانياً حفظها وكم كان شعورنا سيئاً عندما سألنا أن نغني له بالعربية فأجبناه بأننا لانجيد الغناء الا أننا خضعنا لارادته وانشدنا حماة الديار .. القطعة الوحيدة التي يعلمها المؤلف وأرجو أن تتصور شعوره وهو يصغي الينا بحماس ثم نتصور حماسه وهو يحاول أن يتعلم بعض الكلمات باللغة العربية والكلمات الاولى التي أراد أن

يتعلمها هي كلمات الحب والعاطفة . . الكلمات التي يحاول الانسان ان يتعلمها عندما يبدأ بدراسة لغة جديدة .

وكم كان سرورنا عظيماً عندما وجدنا أنفسنا بجانب النهر أمام طاحونة المدينة ياله من منظر جميل في هذا الليل الصامت ويالجمال الانوار الخافته التي تنبعث من الطاحون : انها الطبيعة التي تجعلنا نشعر بالحاجة الى الصمت والتأمل . .

وتمر في ذاكرتنا في هذه اللحظات . . ذكريات النهار . . ذكرى زيارتنا لمعمل الاسلحة الذي يفتخر ببيعك قطعاً مزخرفة وسيوفا يقول لك عنها انها دمشقية . . هذه السيوف وهذه القطع المزخرفة الجميلة تباع لان صناعتها مستوحاة من دمشق .

اما في دمشق نفسها فيبدو ان الناس قد نسوا هذه الصناعة التي يمكن أن تكون سبباً في جاب اكبر كمية من السواح لزيارة المدينة لان السائح يبحث دائماً وأبداً عن الشيء المحلي الذي تمتاز به كل مدينة . .

وبينما نحن نفكر هكذا اذبز ميلنا الاسباني يبدأ بالغناء وأي غناء هذا الذي يصدر من قلبه وكأني به يقول :

في الفجر

والاصيل

كانت اختي

تصيح :

أنا بنت ذوات

ياأخي .. يامسكين

وينقلنا هذا بغنائه الى عالم آخر .. عالم بعيد جداً عن طليطلة وآثارها لم يخلصنا منه سوى العودة إلى الفندق بين الطرقات الوعرة متأملين العائلات الساهرة أمام ابواب منازلها .

* * *

لا شك بأن هذه النظرات سريعة أيضاً وان هذه اللمحات موجزة مقتضبة

تجعلنا نستغرب الاعلانات التي تقوم بها شركات السياحة الاسبانية والعالمية التي تقول إنها تنظم رحلة لمشاهدة طليطلة في يوم واحد .

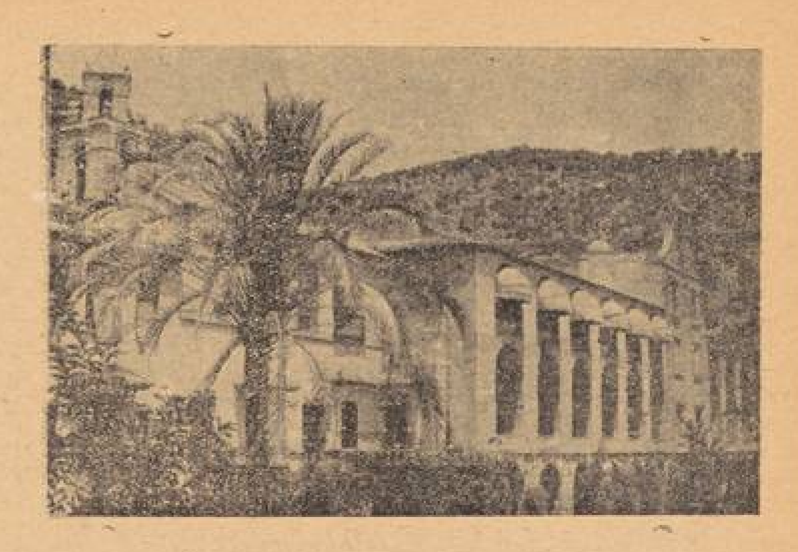
وأي يوم يشاهد فيه المرء ما وصفته في هذه المدينة التي مكثت فيها أربعة أيام ولم أشاهد جميع معالمها .

ان ذلك ليدعونا الى القول بصراحة بأن هذه البدعة الجديدة للرحلات المنظمة من قبل الشركات لا تفيد المرء الذي يحب ان يستمتع بما يشاهده خلال رحلاته لأن الشركات لا هم لها سوى المال .. المال الذي يدفعه السائح السطحي ليرضي بذلك نزعته بأنه يشاهد العالم .. وهو مع الاسف الشديد لا يشاهد شيئاً لانه لا يعيش في البلد الذي يزور سوى ساعات قليلة يستمع فيها الى دليل سخيف يهمه أن يتخلص من هذا السائح ليجد زبوناً آخر

اننا لنذكر هذا بصراحة وفي اللحظة التي نقول فيها معاً : وداعاً طليطلة ، نعم نقول وداعاً وفي محطتها التي بنيت في القرن العشرين على الطراز العربي للبناء في القرن الخامس عشر .. هذه المحطة التي انتهى بناؤها عام ١٩١٨ والتي صنع جميع بلاطها الكاشاني في اشبيلية .

اننا نقول وداعاً دون ان نبتسم .. وكيف نبسم ونحن نتذكر قول الشاعر

لشكلك كيف تبتسم الثغور سروراً بعدما بئست ثغور



قرطبة ـ دير بني من بقايا المدينة الزاهرة



من بقايا المدينة الزاهرة

قرطبة

« أنى يتاح لانسان في هذه الايام أن يقابل واحداً من ابناء جنسنا يقرأ التفاسير اللاتينيـة للكتب المقدسة ؟ ومن ذا الذي يدرس منهم فصول الاناجيل وسير والانبياء والحواريـين ؟ واحسرتاه ! ان كل الشباب المسيحيـين ذوي المواهب ، لا يعرفون إلا العربيـة وإلا كتـابات العرب ، فهم يقرؤونها ويدرسونها بحماس بالغ منتهاه ، كما أنهم ينفقون المبالغ الطائلة من النقود لاقتنائها في مكاتبهم وتراهم - أنى وجدوا - يذيعون أن تلك الاداب جديرة بالاعجاب ، فاذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية ازور جانبهم وأجابوك باحتقار « انها اسفار لاتستحق الذكر ! » ، واحسرتاه عليهم ! لقد نسي المسيحيون لغتهم - حتى ليندر العثور بين الآلاف منا - على فرد يستطيع ان يحرر الى احـــد اصدقائه رسالة لاتينية باسلوب لا بأس به - على حين ترى العدد الجم قادراً على الابانه عما في نفسه باسلوب عربي خلاب ، وعلى حين ترى حذقهم في قرض الشعر العربي قد وصل الى حد فاقوا معه العرب انفسهم » .

الفارو

كاهن قرطبة في اوائل القرن التاسع للميلاد

قرطبة

« قرطبة مدينة النوم ، انها واقعة في حلم جميل هادىء،
رغم طابعها الحزين الذي يشعر به بشكل غير مباشر ».
الآنسة كاسكوان هارتلي مؤلفة
المدن المراكشية في اسبانيا .

أثينا .. أثينا ..

نحن نتجه نحو أثينا العرب .. نحو قرطبة ..

نحو «جوهرة العالم» أثينا العرب والاسلام .

نحو مدينة الحضارة .. مدينة اكبر جامع في هذا العالم الواسع ..

نحو مدينة المكاتب والجوامع .. مدينة العلم والفلسفة .. المدينة التي «ليست ما هي علية الآن .. لانها دائماً ما كانت عليه في السابق» [1] .

مدينة التاريخ .. المدينة التي ستعيش ابد الدهر على قصة من قصص تاريخها الحافل ..

قصة حياة العرب فيها .

* * *

القطار يسير ببطء نحوها .. والساعة التاسعة .. دقائق أخرى معدودات ونحن في قرطبة ، اي حلم آخر نحقق .. قرطبة تالله ما أروع حياة المغامرات التي لا تعرف المستحيلات .. نحن في قرطبة . نودع أصدقاء القطار .. ونسير الى فندق متواضع من فنادقها .. وياله من فندق ينقلني مباشرة الى الشام .. الى حي سوق ساروجة .. الى فندق في حي سوق ساروجة او منزل من منازلها الواسعة .. بحرة ماء واسعة .. ونواصي الورود في اطرافها .. ثم .. ثم اشجار التاريخ .. وشجرة نخيل وحيـــدة وشجرة ليمون وديار واسعة .. أحيطت بأقواس عربية جميلة الصنع .

فندق من فنادق قرطبة وكأنه نقل من دمشق ليكون نموذجاً عن ابنيتها القديمة الواسعة ..

وياله من فندق . اجتمعنا فيه بثلاثة من أخواننا في مراكش .. وبأربعة فتيات من ألمانيا .. ألحت احداهن أن اكون منجماً لها بعد أن عرفت أني قادم من الشرق : ولم تصدق أني لا أجيد هذه « الصنعة » .

وبدأت « أخلط » عليها .. وأنا أقرأ في كفها « الجميل » أنها امرأة غير متزوجة بعد « لا يوجد في يدها خاتم » ، وانها تحب الرحلات وان هناك رسائل ستصلها قريباً .. الى غير ذلك من كليشات سخيفة تكلمتها .. وكم كنت أضحك وهي تصغي الي وكأني جاد فيما أقول .. وقد توقعت أن تسخر صديقاتها منها إلا أني لم اكد أنتهي منها حتى تقدمن الي طالبات أن أنجم لهن ..

ويالها من لحظات جميلة اشتغلت فيها منجماً ..

* * *

ان أول عمل في قرطبة يقوم به السائح بعد الطعام أن يسأل أين هو جامع قرطبة .. نعم أين هو جامع قرطبة .

— أين الـ Mezquita ..

وكأني بأهل قرطبة يعلمون رغبتك في زيارة هذا الجامع الكبير لانه على حد تعبير المؤلفة هارتلي « من اجل هذا الجامع يأتي الغريب لزيارة قرطبة » ولانه بناء على قول الكاتب مولينا:[1] « الابنية التي في قرطبة ، اذا قورنت بالجامع ليست في الواقع الا ظلالا » .

نعم من أجل هذا الجامع أتينا لزيارة قرطبة .

فلنذهب اليه . مبتدأين السير من ساحة جوزيف انطونيو .. متأملين تمثال كابتن قرطبة الكبير : الجنرال فرينانذز ولندخل بين « الحارات » غير مكترثين

---

(١) ريكاردو مولينا

أو ابهين سوى باتجاهنا نحو الجامع الكبير .. الذي يبدو لك فجأة بجداره العظيم . فنقول مع الشاعر الاسباني كونكورا :

• Oh, exelso muro,oh torres coronadas...!

آه . . الجدار المدهش . .

آه . . الابراج المتوجة . .

نحن أمام الجدار الشمالي المزين بالنقوش العربية ، نتمنى ان نتأمله جيداً لاننا وجدنا أنفسنا فجأة في حديقة واسعة أو بالاحرى « في صحن الجامع » المشجر بأشجار البرتقال والنخل والزيتون ذي البحيرات العربية التي تسمع لخرير مياهها صوتاً حزيناً غريباً . عندما يتصاعد من النافورات . « دعنا نلاحظ جمال هذا الصحن . . او بالاحرى بساطته ، سحره الساحر الذي خلق من الطبيعة نفسها . . دون تصنع . . حديقة عناصرها الوحيده هي الماء والشمس والحجر والظل لتعبر عن روح البساطة التي هي عنصر من عناصر الفن القرطبي - العربي »(١)

ولنرتفع بنظرنا الى السماء لنتأمل المأذنه التي كان يرتفع منها صباح مساء صوت المؤذن يقول . .

الله وأكبر الله وأكبر . .

والتي زينت الآن بنواقيس لترسل أصداءها في الهواء . فقد تحولت الآن الى كنيسة

مساجدها كنائس أي قلب على هذا يقر ولا يطير . .

والواقع أن هذه المأذنه مع شجرة النخل لتؤلف منظراً من أروع المناظر التي يشاهدها العربي في اسبانيا . . مشهداً مؤلماً يذكره بحضارته الواسعة وكيف تحولت الآن تحمل اسماء غريبة على مسمعه فهذا الجامع بالذات أصبح يحمل اسماء لاتمت بصلة اليه فالباب الشرقي يدعى سانتا كاتالينا وأما بقية الابواب فتحمل اسماء أخرى لاصلة لها بالجامع مطلقاً .

---

(١) ريكاردو مورينا

لندخل الجامع من بابه الرئيسي . ولنقف لحظة صامتين متأملين ما بناه عبد الرحمن فالصمت المطبق هو خير مايقوم به الانسان في هذا المكان الذي يوحي بالصمت . فهذا الظلام الذي يحيط بالمكان وهذه الظلال القاسية التي تخللها بعض الانوار التي تدخل من النافذة وتلك الغابة من الاعمدة الرخامية التي لاتحصى وهذه اللوحات التي زينت بعض جدران المكان . . وهذا المحراب العظيم الرخامي وتلك البقعة الشاذة التي صنعت لتكون كنيسة فأعطت المكان ظلام الكنائس وماذا أيضاً سوى الصدى الذي ينبعث من انفسنا فجعلنا نسير دون توقف من زاوية إلى زاوية متأملين الاعمدة عموداً عموداً وحجراً حجراً ساخرين باللوحات التي شوهت كل جدار وضعت عليه لان هذا الطراز من البناء العربي الصرف لم يخلق لكي يزين بلوحات زيتية تغطي النقوش الرائعة وان هذه النوافذ العربية الملونة لم تصنع ليوضع بالقرب منها لوحات زيتية .

ان كل زائر سواء أكان عربياً أم غير عربي يشعر بأن روح الجامع العربي هي التي تسيطر على المكان . . وان كل ما أدخل عليه لايتعدي سوى أبنية شاذة كان الاجدر أن تبنى في كل مكان غير هذا المكان لكي لاتشوه الروح التي انشأت هذا الجامع الذي كان يسمع فيه صلوات المسلمين وخطبهم ، دروسهم ومعتقداتهم والى جوارهم التراتيل الدينية المسيحية . .

كل يعتقد بما يعتقد فلا إلزام في العقيدة . .

أي تسامح هذا . . تسامح أعتقد أن التاريخ لم يعرف له مثيلا . وربما لن يعرف له مثيلا . .

وخصوصاً عندما أسس عبد الرحمن الداخل مملكة رائعة وفكر في توسيع هذا الجامع ثم اتى ابنه هشام وبنى فيه فأصبح آية من آيات الفن العربي يفتخر به كل عربي يزور قرطبة . ويتساءل الاجنبي الحر الضمير : كيف يقول بعض المؤرخين أن العرب يهدمون . . غريب . . ان جامع قرطبة . . أو بالاحرى ان اسبانيا برمتها لخير شاهد على ان العرب أينما قطنوا بنوا لهم ولاجيالهم الذين أضافوا على هذا الابنية شيئاً جديداً كما حدث تماماً في هذا الجامع العظيم .

فكلما أتى خليفة أضاف اليه شيئاً جديداً فهذا يزين تلك الزاوية بنقوش عربية وذاك يكتب بعض آيات من القرآن الكريم في زاوية اخرى . . وهذا يضع في سقف المكان نقوشاً ذهبية وذاك يزين الاعمدة الرخامية باطارات فضية . . وهكذا دواليك على مر الاجيال والسنين . .

ومما يذكر أنه عندما يفكر الخليفة في توسيع هذا الجامع لا يغتصب الارض اغتصاباً بل يبتاعها وان قصة المنصور التي رويتها المؤلفة هارتلي مقتبسة اياها عن مراجع موثوقة لخير مثال على هذا النوع المظيم من الاخلاق العربية . .

فكر المنصور في توسيع بناء هذا الجامع ، الا ان الابنية التي كانت مجاورة له كانت مسكونة من عائلات عديدة فذهب بنفسه وعرض على العائلات شراء منازلهم فطلبوا فيها اسعار مرتفعة فلم يأبه بذلك وانما جمل هذه الاسعار مضاعفة الا ان امرأة عجوز قالت إنها تحب منزلها ولا تريد بيعه لان فيه نخلة تحبها فوعدها بشراء منزل فيه نخله . .

ووفى المنصور بوعده، واشترى لها منزلاً فيه نخلة كلفة أموالاً طائلة . . وذلك كي لا يؤلم المرأة العجوز

يالها من أخلاق . . أخلاق الحاكم الذي يعرف كيف يحكم .

* * *

لا نزال في جامع قرطبة .

لا نزال في أروع بناء عرفته اسبانيا وعرفه العالم . .

« انه بناء يوجز عبقرية شعب ، وتجارب أمه وتعاليم مدرسة »[1] .

بناء كان فيه ١٤١٧ عاموداً من الرخام . . ولم يبق منه سوى ٨٥٠ لان هناك من فكر بأن يهدم قسماً من المكان ليبني به كنيسة .

وتناول هذا المفكر الاحمق - ليبني كنيسة كان الاجدر به أن يفكر ببنائها في مكان غير هذا المكان - اذنامن شارلس الخامس وبدأ بالتخريب

---

(١) هارتلي .

كي يبدأ على حد تعبيرهم بالبناء .. بناء كنيسة جديدة!

وكانت مفاجأة للجميع .. الا أنها لم تكن مفاجأة لاصحاب الذوق السليم فقد زار شارلس المكان يوم الانتهاء من العمل فيه .. ولم يكد يشاهده حتى صاح مندهشاً: «لماذا لم أخبر بروعة هذا المكان من قبل».

ثم التفت الى الذين بجواره يعرفونه على ما صنعت ايديهم وقال:

«لقد بنيتم ما تستطعون أن تبنوه أو يبنوه غيركم في أي مكان، ولكنكم هدمتم تراثاً. كان لا مثيل له في هذا العالم».

* * *

لنقف قليلاً بالقرب من المحراب.

ولننس كل شيء في هذا العالم شئنا أم أبينا فالرهبة التي يوحيها هذا المحراب الصامت لرهيبة حقاً .. انها رهيبة توحي بالالم والحزن .. الالم لما تفقده الامم عندما تصبح الشحناء والتفرقة عنصراً منها .. فتفقد ذاتها وتفقد رسالتها .. لان الوحدة .. وحدة الرأي هو في الحقيقة وحدة في الرسالة .. الرسالة التي يؤديها العربي والعربية في هذا الايام .. في كل بقعة من بقاع هذا العالم العربي الذي كان له شأنه في تاريخ الحضارة وسيكون باذن الله ..

نعم لننس كل شيء ولنقف قليلاً بالقرب من المحراب «فهنا يشاهد المرء رسالة شعب عرف غاية الحياة ومرحها .. وعرف كيف يتناول جميع الاشياء ويخلقها متناسقة من جديد» (١)

دعنا نقف قليلاً في هذه البقعة التي كانت مكانا لعبادة آلهة عديدة فقد كان للرومان معبد صغير هنا ثم تحول هذا المعبد الى كنيسة صغيرة حتى ذلك اليوم الذي فكر فيه عبد الرحمن ببناء أروع ما بناه العرب ..

جامع قرطبة ..

وقد كان له ما أراد ..

وتطور التاريخ ..

الا أن الجامع لا يزال مهيمناً على المدينة .. ولا يزال صدى الله وأكبر ..

---

(١) هارتلي

لا اله الا الله تعالى في كل زاوية يسير فيها الانسان في هذا الجامع أو في خارجه لان الروح ... الروح الخالدة لا تزال تحلق في هذا المكان.. فلهذه المدينة روح أيضاً.. وروحها .. الحضارة العربية ..

مبالغة ..

لماذا .. لاني عربي يصف مكاناً عربياً ..

كلا .. أيها الاصدقاء. لقد وصفه الاجانب وصفاً حقيقياً .. فلنصغ الى ج. ستريت الذي عاش في اسبانيا سنوات عديدة و كتب عنها كثيراً: انه ليس عربي انه يقول:

« إن هذا المكان لا يصلح إلا أن يكون جامعاً .. وانه في الواقع كان من الافضل للمسيحيين أن يدعوه وشأنه أو يجعلوه متحفاً على أن يشوهوه بتحويله الى كنيسة ».

انها الروح أيها السادة التي تضفي على المكان هذه الروعة .. وهذا الطابع فمها حدث من تغير ومها هدم منه الزمان .. فان الأمم القادمة ستتحدث عن جامع قرطبة وتصفه كما وصفه شارلس الخامس:

« مكان لا مثيل له في هذا العالم ».

* * *

يخرج المرء من جامع قرطبة حزيناً شاء أم أبى ويسير بهدوء الى مخازن بيع العاديات ليشتري الهدايا أو ليكتب الرسائل.. ويتأمل جدران الجامع وهو يسير متجها نحو نهر المدينة الاصفر اللون. ليجتاز بهدوء الجسر ليصل الى احياء فقيرة معدمة .. الغبار أول مايميزها ولكن رغم هذا فهي كبقية مدينة قرطبة « كل زاوية منها تصلح لان تكون لوحة فنان ».

ويعود المرء متوجها نحو الجامع ثانية ثم نحو المدينة ليدخل بين أحيائها الضيقة ويتأمل نوافذها التي ملئت بأصص الورود ..

وخلال هذه الجولة في هذه المدينة يتذكر المرء مدينة واحدة شبيهة بها وهي دمشق .. وسواء أكان هذا المرء مواطنا من دمشق أو من غيرها .. وسواء امكث في دمشق عاما أو يوماً.. انه يتذكرها، ولا شك بأن الكاتب ستريت من

الحساسية بمكان بحيث شعر هذا الشعور ، عندما قال ..:

« هذه مدينة من المدن التي قطنت دوماً وأبداً في هذا العالم . لها طابع خاص أكثر مما لغرناطة أو اشبيلية .. انها تذكرني بدمشق أكثر مما تذكرني بأي مكان آخر شاهدته في حياتي » .

وفي الواقع ان هذه المدينة تشابه دمشق حتى من حيث التاريخ فهي من المدن القديمة التي خربت « لاحظ أنها لم تبن » في ذلك الصراع العنيف بين يوليوس قيصر وبومبي الكبير ..

انها كمدينة برشلونة أيضاً امتزج تاريخها بالضباب وامتزجت أقاصيصها بالاساطير ..

انها المدينة التي ولد فيها سينكا الفيلسوف ..

الا ان تاريخها الحقيقي الذي جعل منها مدينة من اعظم مدن القرون الوسطى بدأ منذ اللحظات الاولى التي دخل اليها مغيث بن الحارث مع سبعمائة فارس في ليلة من الليالي التي أخفى البرد فيها وقع سنابك الخيل ..

ومن هذا التاريخ وقرطبة هي المدينة التي ترسل اشعاعها العلمي إلى أوربا خلال القرون الوسطى .. فجامعتها أو جامعاتها كانت من الاماكن التي يرتادها كل من أراد أن ينال من العلم شيئاً ..

وفي هذه المدينة ايضاً كانت بداية نقل الحضارة العربية في القرون الوسطى الى أوربا ومن هذه المدينـة بدأ الناس يتعلمون صناعـة الزجاج والورق والصناعات الجلدية التي انتشرت في العالم حتى انه في انكلترا يدعون هيئة الاعمـال الجلدية بـ Guild of Cordwaines نسبة الى قرطبة لانها أول بلد علمت الناس في أوربا هذه الصناعة ..

لقد كان في هذا المدينة ... ٢٠٠ منزل سكن و ٦٠٠ جامع و ٩٠٠ حمام ومئات القصور .

« ان مجدها زاد على مجد بغداد ..

انها بحق جوهرة الاسلام .. ».[1]

* * *

قرطبة ..

نعم .. قرطبة اثينا العرب .. هذه المدينة التي لم تصبح عاقة فتنسى ما كان لها .. لانها في الواقع هي ما كانت عليه في الماضي ..

لانها لا شيء الآن .. ولانها لولا جامعها الكبير الذي يعتبر ثاني كنيسة في العالم لما كان لها اية شهرة عالمية .. انها مدينة يؤمها السواح ليشاهدوا ما تركه العرب فيها ..

وان للعرب ان يفتخروا بهذا .. حتى ولو ان فخرهم لا ينفعهم كثيراً في هذه الايام التي تتطلب عملاً لا فخراً ..

* * *

نحن في قرطبة .. نسأل عن الرصافة ..

ونقول الرصافة باللغة العربية الفصحى .. فيفهم الجميع علينا ويرشدونا الى الرصافة الواقعة خارج المدينة ..

وان على الزائر أن يشاهد هذا المكان .. هذه البقعة من الارض .. الواقعة على سفح السيرا التي توحي بالعبقرية التي دعت العرب ان يبنوا في هـذا المكان حيث نزل عبد الرحمن الاول .. ان هذا البقعة هي اجمل بقعة في هذا الجبـل برمته ولا يضاهيها جمالاً سوى البقعة التي بنيت عليها المدينة الزاهرة ..

لنقف قليلاً هنا في الرصافة ولنلق بنظرة عميقة على المدينة البيضاء قرطبـة المدينة الناصعة البياض ولنصغ الى الاطفال الصغار الذين يلعبون في هذه المنطقة من الجبل ويغنون أغنيتهم الشعبية .

رفاق يسيرون .

خلال السيرامورينا

---

(١) كلون

رفاق يسيرون
وقائدهم يدعى
جوزه ماريا
لا أحد يقبض عليه
طالما أنه
لا يزال يركض ..

* * *

المدينة هادئة .. انها بحق المدينة النائمة في سفح هذا الجبل الجميل ، وان هذا المنظر الذي يشاهده المرء من الرصافة لمن أجمل المناظر الذي يستطيع الانسان أن يشاهد فيه قرطبة وسماءها الزرقاء الصافية ويتأمل ما شاء له ان يتأمل من تاريخ هذه المدينة وحوادثها ..

لقد بدأت الشمس تختفي وراء الجبل .. وأصبح السهل الفسيح المتدحرج الافق ذو ظلال جميلة متناسقة ياله من منظر .. لن أنساه مادمت حياً ..

* * *

نحن نعود الى المدينة لنقضي الليل في احدى ملاهيها مع الألمانيات ـ اللاتي كدت انساهن طوال هذا اليوم ـ في احدى ملاهي قرطبة الذى مدحه لنا صاحب الفندق وقال بأننا سنشاهد رقص الغجر ونصغي الى غنائهم ..

وكم أحب الغجر ..

لذلك لم أتردد مطلقاً في الذهاب الى هذا الملهى الجميل الذي تطفىء فيه الانوار بين لحظة وأخرى ..

هذا الملهى الذي يعرض نماذجاً لفن الرقص الاسباني ويالها من نماذج سيئة .. لا انصح أحداً أن يشاهدها .. الا اذا كان ممن يحبون أن تطفىء الانوار عند ما يكون بالقرب منه فتاة يطارحها الغرام ..

فالواقع أن هذا النوع من الملاهي المبتذلة الرخيصة تستغل هذا الاسم الكبير « فن الرقص الاسباني » وتجلب لها السواح الذين لا يشاهدون شيئاً ..

اذ أن « الفن » تحول في هذه الاماكن الى تجارة رابحة يستثمرها كل من أوتي من الذكاء مبلغاً وافراً فينسى الفن ويصبح تاجراً ..

تاجراً بكل معنى الكلمة ..

فقد تحولت ملاهي الدرجة الاولى الى متاجر يتاجر أصحابها بالفن الاندلسي وبالرقص الاندلسي .. لقد جعلوا برامجهم حافلة بكلمات شاعرية .. وأغان شاعرية الغجر .. رقصهم .. في بلاد الاندلس .. في ملاهي الاندلس .. ولكن ماذا في هذه الملاهي ..

رقص لا روح فيه .. وعواطف متصنعة كاذبة .. وموسيقى الراج المزعجة التي تعزف بين الفنية والفنية ارضاء للجمهور !

ولكن تحت هذا الرداء .. وتحت هـذا الاسم : رقص الاندلس .. الزوار يذهبون ليشاهدوا كما يعتقدون نموذجاً حياً للرقص الاسباني ولكنهم وأسفاه لا يشاهدون إلا صورة متصنعة كاذبة للرقص وللروح الاسبانية .. ورغم أن هذه الصورة كاذبة لاشك فإن فيها مسحة من الجمال .. فهي تترك في النفس ذكريات.. وأية ذكريات أن يصغى المرء الى موسيقى اسبانية فيها روح بسيطة من روح الموسيقى الاسبانية الحقة..أو من موسيقى الفلامنكو ورقص الفلامنكو المقتبس من الغجر..

إن هـــذا الرقص وهـــذه الموسيقى لا يجيـــده إلا أهله .. إلا الغجر .. والا الاسبان الذي لم يتخذوا من الرقص حرفه يبتزون بها الاموال.. فالطفلة الصغيرة التي تنحني امامك بأدب جم وتبدأ برقصها وغنائها الجميل لتثير في نفسك اجواء شاعرية أكثر تأثيراً في نفسك من الفنانات اللاتي امتهن الرقص واللاتي لا يثرن في نفسك الا الرغبة الجسدية .. فرقصهن رقص إغراء اكثر مما هو رقص فن لذلك من الافضل أن يقصد المرء الاماكن التي يرتادها الاسبان أنفسهم لقضاء سهراتهم وليتحاشى قدر المستطـــاع الاماكن التي بنيت للزوار ...

فأماكن اللهو اذاً في اسبانيا ليست إلا أماكن تجارية لا فن فيها .. فلنقصد

خلال رحلتنا اذاً الاماكن التي يقصدها الاسبان .. ولنتأمل قدر المستطاع تلك النسوة الرائعات اللاتي لا يرقصن باجسادهن فقط قدر مايرقصن بروحهن ... روحهن الاسبانية التي فيها من الحيوية ما تجعل هذا الجسد طوعاً لعواطف نبيلة.. لعواطف الحب .

الحب.. الحب الذي لا يعلمه ولا يستطيع وصفه الا من عاناه لذلك لا نستطيع الا أن نقول.. ان الراقصة الاسبانية والمغنية أو المغنى الاسباني الحق لا يحرك حنجرته الا ويتمثل ولا شك صورة حبيبته التي يغني من أجلها .. ولا شك بأن الراقصة الاسبانية ايضا لا تحرك جسدها الا وهي تتخيل عاشقها.. فتقدم بيديها ثم بعينيها ثم تعبر بجسدها برمته عن حبها .. حبها الذي ينتهي باخماد نار الشهوة في جسدها عندما تقع على الارض بعد أن تقف يداها وقدماها ونهداها .. وشعرها وكل جزء منها عن الحركة .. بعد أن تقف الموسيقى صامتة صمتا جميلاً .. ان لم أقل رائعاً .. واذا كانت الكلمات أو الاشعار - وهي أداة تعبير للعاشق أو العاشقة - فلا شك بأن الرقص أو الموسيقى هما اداتا التعبير عن العواطف الكامنة في هذا الشعب الحي ففي خلال تجوالنا على أي حال شاهدنا أن كلا منهم يجيد الرقص .. والسبب بسيط .. لانه يعرف الحب .. وكم اتمنى .. أن اعرف هذا الحب في يوم من الايام وكم اتمنى ان يعرف اصدقائي في دمشق هـذا النوع من الحب المجرد .. الحب المثالي .. الذي لاتدخل فيه المادة ولا يكون فيه الرجل أو المرأة كسلعة رخيصة مادية ..

انه الحب .. ولا شك .. الذي يجعل من الشعب الاسباني شعباً سعيداً رغم فقره ..

انه الحب الذي يدفع هذا الشعب النبيل نحو الحياة ..

ولكن لا حب في ملاهي قرطبة ..

بل تجارة .. تجارة رائعة.. الرابح فيها هو صاحب الملهى فلنمد إذاً الى الفندق

بعد أن مللنا النظر الى هذا الرقص « الجلمص » كي نستريح ونذهب صباحاً سيراً على الاقدام إلى المدينة الزاهرة .. مدينة الزهراء ...



الغجر ... أمام العدسة

الزهراء

قرساي قرطبة

همم الملوك اذا أرادو ذكرها

من بعدهم فبألسن البنيان

أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم

ملك محاه حوادث الأزمان

أن البناء اذا تعاظم شأنه

أضحى يدل على عظيم الشان ..

الناصر

— باني الزهراء —

المدينة الزاهرة

« ولو لا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسرراً عليها يتكئون » القرآن الكريم

الآية الكريمة التي استشهد بها القاضي منذر بن سعيد لباني الزهراء عندما شاهد الغرف من ذهب .. قالها ناقداً هذا الترف العجيب ..

من المألوف في التاريخ القديم أن تتحول بعض وقائعه الى أساطير .. أما أن تتحول الأساطير الى وقائع فهذا من النادر حقاً .. إلا أن هذا سيبدو لك مألوفاً عندما نسير معاً على الأقدام باتجاه المدينة الزاهرة ..

المدينة الزاهرة ... !

المدينة التي لم تعرف من الازدهار سوى فترة وجيزة ،فترة كانت فيها أعجوبة من عجائب هذا العالم وأصبحت مع مرور الأيام أسطورة مدهشة رائعة من أساطير هذا العالم ..

المدينة الزاهرة .. المدينة التي تضاهي الحمراء في الروعة والبهاء وتضاهي أعظم قصور اسبانيا التي حفظها التاريخ ..

ولكن المدينة الزاهرة اليوم واسفاه مدينة مندثرة اكتشفت معالمها منذ أمد غير بعيد فلنذهب اليها معاً لنشاهد أطلالها ونقول مع الشاعر الشميس في رثائها :

وقفت بالزهراء مستعبراً ... معتبراً أندب اشتاتا
فقلت يازهراء ألا فارجعي ... قالت وهل يرجع من ماتا
فلم أزل أبكي وأبكي بها ... هيهات يغني الدمع هيهات
كأنما آثار من قد مضى ... نوادب يندبن أمواتا

* * *

كانت الساعة الثامنة عندما بدأنا السير نحو المدينة الزاهرة متسائلين ..
— أين المدينة الزاهرة ..
— المدينة الزاهارا .. سي سنيور .. تسير إلى الأمام حوالي سبعة كيلو مترات .. حيث تجد معملاً تسير بعد ذلك على طريق غير معبدة مدة نصف ساعة ثم تجد المدينة الزاهارا ..
— كراسيا سنيور (شكراً سنيور) ..
كنت أسأل كل عابر سبيل عن المدينة .. وكان يجيبني كما أجاب الاول ..
الكل يعلم أين المدينة الزاهرة ..
واغذذنا السير وكانت الغيوم تحجب عنا شمس اسبانيا المحرقة حتى تبدت لنا المدينة على الجبل وكما وصفها ابن عربي تماماً « تحت جبل العروس من قبلة الجبل وشمالي قرطبة وكأنها الغادة البيضاء في سفح ذلك الجبل الاسود .. »
وبدأنا نسير باتجاهها على الطريق الغير معبد! .. وكأننا نسير في ريفنا السوري .. حيث تتداخل الطرق أحياناً مع أراضي الفلاحين الذين يبتسمون لك محيين وفي نفوسهم شيء من العجب عن ذلك الذي يسير وحيداً خلال الجبال ليشاهد .. لا شي ..!
فالزهراء بنظر سكان المنزل الوحيد الذي بجوارها لا شيء .. انقاض متهدمة وأحجار غير متناسقة وخواب متكسرة .. يجلس بعض الأخصائيين أو الحمقى يرممونها .. وهناك — ياللعجب — من الخوابي الجديدة ما يضاهى كل الخوابي الموجودة في المدينة الزاهرة ..

* * *

كانت نظرات صاحب البيت وهو يعيد أوزانه الى حظيرتها توحي الينا بكل هذا ..
— المدينة الزاهارا سنيور ..
— سي .. سنيور انها هناك على بعد بضع خطوات ..
وكانت على بعد بضع خطوات ولكني لم أشاهد شيئاً ..

منزل صغير وكانه حديث كتب على بابه ..
المدينة الزاهرة ..
وطرقنا الباب ومضت لحظات طويلة قبل أن تفتحه لنا فتاة على جانب عظيم من الجمال ..
ـ المدينة الزاهرة ..
ـ سي سنيور .. انها هنا ..
وأشارت علينا بالدخول ..
والتفت ذات اليمين وذات الشمال وأنا أتبعها ..
اننا في المدينة الزاهرة حقاً .. في المدينة التي بناها المهندسون العرب : عبد الله بن يونس ، حسن بن محمد وعلي بن صقر ..
وساد الصمت وأنا انظر مستغرباً الى ما حولي :
أحجار وكأنها من قصر هشام بن عبد الملك ومن جامعه في فلسطين بالقرب من اريحا .. نقوش اسلامية وأحجار كتب عليها آيات من القرآن الكريم وأقسام من زوايا أعمده نقشت وحفرت حفراً جميلاً رائعاً ..
ـ هنا المدينة الزاهرة .. قالت الفتاة الجميلة الاسبانية بصوت وكأنها تدرك معنى ما تقول .. وتدرك بعظمة ما نشاهد بالنسبة الينا كعرب ..
ـ نعم هنا المدينة الزاهارا سنيور .
وأبدت استغرابها مما يبدو علينا من تعب ولكنها لم تعد تستغرب هذا بعد أن علمت أننا اتينا مشياً على الاقدام ..
ـ هل بالامكان الحصول على قليل من الماء ..
ـ لا شك سنيور ..
وذهبت تجلب لنا الماء بينما مكثت أتأمل ما يحيط بي من آثار عربية رائعه ..
نظرت نحو اليمين عسى أن استطيع أن اتصور أين مكان باب الاقباء أول ابواب القصر عسى أن أشاهد صورة الزهراء التي نقشت عليه .. وباب السدة

الأعظم وقصر الخلافـــة والمسجـد .. وخزائن الكتب . والبحـيرة العظمى ولكن لا شيء ..

لا شيء مطلقاً .. اطلال مبعثرة هنا وهناك .. وأحجار أثرية جمعت في زوايا معينة لتذكر الناس بعظمة مكان هذه المدينة .. هذه الاحجار الرخامية التي قيل عنها في نفح الطيب « إنها جلبت من قرطاجة وأفريقية وتونس .. »

وأي ذكرى تلك التي ترجع بخيال المتفرج الى قرون عديدة فيتذكر قصة غرامية جميلة كانت سبباً في بناء هذه المدينة ..

. . .

كانت الشمس تغرب رويداً رويداً عنـدما أتاه النعي .. لقـد توفي لامـير المؤمنين عبد الرحمن الناصر سرية جميلة ذات عينين جذابتين وجسم جميل وقلب مخلص وفي .. فقد اوصت له بكل ما تملك ..

وماذا يفعل أمير المؤمنيين بمال ليس بحاجة اليه سوى صرفه على المسلمين..

فليكن اذاً وليسترد الاسرى المسلمين الذي اخذهم الغربيون في حروبهم ..

وبث الدعوات في كل قطر ..

ولكن لا يوجد أسرى والحمد لله ..

هكذا كان العرب .

ماذا اذن .. والمال الفائض لا يجوز أن يبقى مدخراً .. فقرر استشارة أحب الناس اليه فسأل زوجته ....

فكان جوابها جواب الفتيات اللاتي يعرفن ما يطلبن ..

لقد طلبت زوجته الزهراء أن يبني لها مدينة ..

— « زوجي اشتهيت لو بنيت لي مدينة سميتها باسمي وتكون خاصة لي .. » .

وكان لها ما ارادت .. وبنيت الزهراء من عام ٣٢٥ — ٣٥٠ هـ .

ولشد ما أتمنى أن يقرأ المتزوجون هذه القصة فلا يجدون في طلبات زوجاتهن اشياء فيها مغالاة ..

لقد طلبت أن يبني لها مدينة فشكراً لتواضع فتاة هذه الأيام فقد اشترك في

بناء هذه المدينة . إذا صدقنا الادريسي والمقري ۰۰۰ و ۱۰ عامل عملوا خمسة وعشرين عاماً يهيئون موادها لا كتشفنا انها هدية عظيمة وان سيارة « كاديلاك » هي لا شيء الآن ..

* * *

عادت الفتاة الاسبانية بالماء وبصحبتها أبنها الذي أصبح دليلنا فقد اعتذرت لاضطرارها للقيام بأعمال منزلية ولكن يبدو أنها خافت أن أطارحها الغرام .. فحمدت الله بعد لحظات لانها لم تذهب معي كي استمتع بمشاهـــدة الآثار التي اكتشفها المهندس الاسباني دون ريكاردو فالاسكز الذي انيط به البحث عن هذه المدينة ..

• • •

صعدنا درجاً متواضعاً إلى غرفة شبه متواضعة ملئت بخوابٍ ومشربيات عديدة كما وضع على طاولات طويلة جميع القطع التي اكتشفت حديثاً من الفخار العربي وفي الواقع عندما يتصور المرء الناس الذين كانوا يستعملون هذه الاواني يتملكه شيء من الرهبة والدهشة

ونظرنا من النافذة الى السهول الخضراء التي تذكر الانسان بأشياء كثيرة عديدة .. تذكره ببلاده عندما ينظر الى تلك النخلة الوحيدة التي تتصاعد نحو السماء حزينة لوحدتها الغريبة ولكنها فخورة بوحدتها وكانت تعتقد أنها النخلة التي شاهدها عبد الرحمن الداخل وقال فيها متحسراً ..

يانخل ! أنت فريدة مثلي	في الأرض نائية عن الأهل
تبكي وهل تبكي مكممة	عجماء ، لم تجبل على جبلي
ولو أنها عقلت ، اذن لبكت	ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها حرمت ، وأخرجني	بغضي بني العباس عن أهلي

ان هذه النخلة الحزينة لتوحي للعربي بحزن عميـــق عندما يتذكر بلاده وأحبابه فيها ـ اذا كان له أحباب ـ انها لتوحي اليه بألم عميق فهو يتذكر الوحدة رغم وجوده في قصر عظيم لم يبق منه شيء حتى الآن ..

لقد نظرت الى النافذة وشردت بي الذكرى الى يوم كانت هذه المدينة على أهبة الاستعداد لافتتاحها ..

فتخيل معي ايها القارىء ماشاء لك أن تتخيل .. تخيل الامراء بملابسهم والاميرات في حريمهم تخيل العظمة في أروع ما يمكن أن يتصور الانسان.. تخيل الالوف التي شهدت احتفالاً من أروع احتفالات الاندلس ..

يوم افتتاح « الزهراء » عندما وقف الرئيس أبو عثمان بن ادريس وانشد قصيدة منها :

سيشهد ما أبقيت أنك لم تكن ... مضيعاً وقد مكنت للدين والدنيا

فبالجامع المعمور للعلم والتقى ... وبالزهرة الزهراء الملك والعليا

لقد قال الرئيس قصيدته مادحاً فوقف القاضي المنذر بن سعيد الذي أعنى أن يكون القضاة جميعهم من طرازه .. قاض لا يعرف الرياء والنفاق ولا يعرف المجاملة والمداهنة .. لقد علم بحدسه أن هذا تبذير واسراف فقال دون خجل ودون خوف :

ياباني الزهراء مستغرقاً ... أوقاته فيها ، أما تمهل !

لله ما أحسنها رونقاً ... لولم تكن زهرتها تذبل

فأجابه الناصر وكأنه أدرك ما يقول :

« ولكن إذا هب عليها نسيم التذكار والحنين وسقتها مدامع الخشوع يا أبا الحكم لا تذبل إن شاء الله تعالى »

ولم تذبل الزهرة .. مدى هذه القرون فإن مدامع الخشوع لاتزال تسقيها منذ ان بنيت ومنذ أن قال فيها ابن عربي :

ديار بأكناف المغيب تلمع ... وما ان بها من ساكن وهي بلقع

ينوح عليها الطير من كل جانب ... فيصمت أحياناً وحينا يرجع

فخاطبت فيها طائراً متفرداً ... له شجن في القلب وهو مروع

فقلت : على ماذا تنوح وتشتكي ... فقال : على دهر مضى ليس يرجع

...

لقد شهدت الزهراء اياماً يصعب وصفها . . اياماً غير ايام افتتاحها ومن أروع هذه الايام ولا شك عندما زار المدينة الملك أردون بن ادفونش أيام المستنصر ... يوم سجد هذا الملك معترفاً بفضل العرب ونبلهم فقد انام دون حراسة من قومه لأنه كان واثقاً من نبل العرب وشرفهم ...

لقد أنام آمناً مطمئنا ولكن لم يكن يجول بخاطره أنه سيشاهد هذا النوع من الترف العجيب الذي لم يسمع به من قبل في تاريخ اسبانيا . .

ولم يجل بخاطره أنه بعد مدة وجيزة ستدمر الغوغاء « كعادتها » أعجوبة من عجائب الزمان وذلك بعد سقوط هشام وازالة دولة بني عامر ولم يجل بخاطره أن هذه العجائب ستباع في جميع اسواق العالم . .

ولكن لم يجل بخاطره ولاشك أن هذه المدينة بنيت في هذه البقعة لحمايتها من الرياح الغربية وانها من وجهة التكنيك العسكري ضرورية ان تكون في هذه البقعة لا كقصر بل كقلعة . . .

. . .

لا نزال في الزهراء . . بل لا نزال في غرفة « اواني الزهراء » ولا يزال خيالنا يسير من حادثة الى حادثة فعيوننا لا تزال تتنقل من مكان لآخر . . الا ان قلبنا مع الأسف لا يزال في مكانه لا يتنقل من مكان الى مكان . . فلا يزال يبكي على ما ألم به من ذكريات عنيفه مرت به . . لا يزال يبكي ذلك المجد الذي بناه العرب ليشيدوا للعالم حضارة اسلامية من اروع حضارات التاريخ وايهدم الغوغاء بدافع الانتقام البغيض أجمل وأقدس وأروع ما فكر به انسان . .

أن يبني مدينة ليخلد حبا

آه ما أروع الحب وما أجمله وما أروع هندسة البناء التي تنبثق عنه وما أجملها . .

« لم يعرف العقل قبلاً فخر هندسة ... يحكي سناها ، ولم تذكر بامثال
أعجوبة الدهر لولا أنها طمست ... من غيرة فسحت من حب أجيال
وصار يحسدها الباقي هيا كله ... حيناً ، ويرقب منها طول آجال »[1]

---

(١) ابو شادي في وصف الزهراء

لا نزال في الزهراء ..

ولكننا الآن نسير الى الفضاء الرحب حيث الخضرة والمروج هناك حيث الانسان المتحضر المعاصر يرسل البعثة تلو البعثة للتنقيب عن معالم الحضارات ..

هناك تحت السماء الزرقاء الصافية تعمل المعاول على الارض باحثة منقبة عما بناه العرب فقد أراد العلماء الشرفاء اعادة الحق الى نصابه . فبدأوا يفتشون من جديد عن قصور ابائهم واجدادهم .. العرب ..

نعم .. هناك ... انظر حواليك ... بوابة الاقباء .. أول أبواب القصر وهنا .. اننا نقف بالقرب من رواق مدهش البناء .. وهنا أيها الاخوان قاعة .. قاعة الخلافة ..

وقصور الآثار .. وتخيـــل الآن ولكن مهما تخيلت . ومهما وضعت من بنات افكارك ما تستطيع وصفه وبالغت في الوصف فلن تتمثل اكثر من الحقائق التي قالها العرب في وصف هذا القصر أو قل هذه المدينة ..

وبربك أيها القارىء توقف لحظة عن القراءة الآن .. وتخيل هذه القاعة بموجوداتها ثم قارن ما تخيلت بما قاله المقريزي في وصفها ..

أليست الحقيقة أغرب من الخيال ..

قال المقريزي ..

« كان سقفه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه .. الملونة اجناسه وكانت جدران هذا المجلس مثل ذلك ..

وجعلت في وسطه اليتيمة التي أتحف الناصر بها « لاون » ملك القسطنطينية . وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة وفي وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب واصناف الجواهر وقامت على سوار من الرخام الملون والبلور الصافي وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار . وكان الناصر اذا أراد ان

يفزع أحداً من اهل مجلسه أومأ الى احد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس لمعان كلمعان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من في المجلس أن المجلس قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك » .

ولكن انا لم أطر طبعاً فالفتاة التي فتحت لنا الباب ليست امامنا ..

...

من بعيد وعند الأفق .. تبدو قرطبة كخط ابيض جعلت الشمس منه انعكاساً رائعاً .. ومن بعيد .. نعم .. فنحن الآن في القرن العشرين وليس في زمن المدينة الزاهرة « حيث اتصلت مباني الزهراء بمباني قرطبة بحيث أنه كان يمشي بها بضوء السراج عشرة أميال » كما قال ابن سعيد (وفي الحلة المذهبة في حلى مملكة قرطبة) .

نعم .. من بعيد تبدو قرطبة .. فكيف نعود اليها وقد بلغ منا التعب مبلغه بعد جولات وذكريات ..

وفكرت قليلاً فوجدت أنه لا بد لنا أن نستريح فشمس الظهيرة في اسبانيا مضرة لاجسامنا التي لم تألف هذا النوع القاسي من الطقس ..

والاستراحة في المدينة الزاهرة لا فائدة منها لذلك ليس لدينا الا أن نتوجه نحو أقرب مكان وهو دير دي سان جيرونومو .. وكأن الله اراد بناخيراً بذلك لكي نشاهد بقية المدينة الزاهرة ..

نعم المدينة الزاهرة ايضاً ..

دير ... وماركيز

« جلبت المواد التي بني بها الدير الكبير .. من المدينة الزاهرة » .

ريكاردو مولينا . مؤلف كتاب «قرطبة»..

الاكمة المشجرة تغرينا بالسير بين اشجارها متحاشين الطريق الرئيسي لاختصار المسافة والاستفادة من ظلال الاشجار ولم يعقنا شيء عن الوصول الى باب الدير الرئيسي سوى الازهار البرية الشغوف بمشاهدتها وتأملها فكنا نتأمل زهرة ثم نبحث عن أخرى حتى وصلنا باب الدير دون أن نشعر بتعب أو عناء ..

وكانت مفاجأة كبيرة لنا أن نقف أمام بوابة كبيرة من طراز عربي على يمينها باب صغير يكاد الورد الاحمر يغطي جوانبه بشكل جذاب ..

وطرقنا الباب ببطء وكأننا نريد احترام المكان .. ولكن لا مجيب ..

ومضت لحظات قصيرة عاودنا الطرق ..

ولكن لا مجيب ايضاً ..

وجال بخاطري أن سكان الدير يتناولون طعام الظهيرة في غرفة بعيدة عن المدخل فعاودنا الطرق ولكن لا مجيب ايضاً ..

فدفعت الباب قليلاً فاذا بصريرة يجرح أذني ويوحي بأنه باب مهجور فناديت بصوت خفيف .. سنيور ..

ولكن لا مجيب ايضاً ..

صمت .. صمت غريب في هذه الظهيرة المحرقة .. صمت مؤلم في هذا الدير الموحش .. فلا حس ولا حركة .

ولم أجد بداً من الدخول فسرت مجتازاً البوابة الكبرى .. الى ساحة تحولت الى حديقة برية فأشجار النارنج والليمون وثمارها الملونة كانت خير

عزاء لنا من عدم مشاهدة أي انسان ..

ثم اجتزنا الساحة الى باب صغير طرقناه دون جدوي .. وانتظرت قليلاً منتظراً أي جواب ولكن دون جدوى ايضاً فلم يكن بد من الدخول دون استئذان أيضاً ..

فتحت الباب ببطء فكان صوت صريره كالأول ودخلنا الى قاعة تهدم سقفها واذا بصوت غريب ينبعث من زوايا المكان الذى كان كنيسة مسيحية فيما يبدو لأول وهلة ..

وتضاعف الصوت .. صوت طيران الطيور البرية التي تندفع من كل مكان متجهة نحو أعالي المكان.. طيور جميلة سمع لصوت أجنحتها صدى جميل ..والتفت بنظري الى زوايا المكان حيث خيوط العنكبوت قد تجمعت في كل مكان وحيث الاحجار قد تبعثرت هنا وهناك دون نظام .

واقتربت نحو احدي الزوايا مفتشاً عن حيوان غريب شاهدته يمر ولكن لا شيء .. احجار فقط .. ولشد ما تعجبت في أن أجد في هذه الأحجار شيئاً جديداً ..

نقوش عربية وآيات قرآنية نقشت نقشاً رائعاً ..

احجار المدينة الزاهرة ولا شك ..

نحن إذن في المدينة الزاهرة أيضاً .. إذاً فلنتقدم الي الامام دون استئذان طالما أنه ليس هناك من مخلوق .

بدأنا جولتنا من ساحة الى ساحة .. ننظر من النوافذ الى الغرف المغلقة ونتأمل الطراز العربي في البناء.. فالاقواس وأصص الزريعة المنبثة في كل مكان في نوافذ القاعات وعلى البحيرات ..

وكاني بالطيور البرية قد شغفت بنا فبدأت تتبعنا حيث نذهب ..

وبعد هذه الجولة القصير وجدنا أنفسنا خارج الدير أمام الطبيعة الأم ايضاً..

وبالقرب منا فيلاً حديثة فسرنا باتجاهها عسى أن نجد بشراً ..

ولكن لا صوت ..

اقتربنا نحو الدار المحاطة بأجمل أنواع الورود التي ترسل اذكى الروائح فاذا بنا نسمع ضحكاً متواصلاً صادراً عن امرأة ..

حسناً في النهاية نحن مع بشر ..

كانت الفتاة في المنزل تضحك من كل قلبها ولم تكد تشاهدنا حتى توقفت عن الضحك وحيتنا وهي تنظر الينا مستغربة .

– سنيوريتا ألا يوجد أحد هنا ...

ولم تجبنا السنيوريتا وانما نادت رجلاً من داخل المنزل ..

واستقبلنا الرجل مستغرباً ..

– نحن هنا لنشاهد الدير .. قلت له بصوت هادئ ..

فأجاب بأنه ليس هناك دير أو رهبان .. أو اي شيء آخر ..

وأخرجت دليل المنطقة وأشرت اليه على اسم الدير ..

– سي سنيور .. انه هنا ولكنه الآن منزل خاص ..

– منزل خاص .. وياله من منزل ..

ولم أصدق ما يقول .. فلم أتوقع أن تكون أكمة كاملة منزلاً خاصاً وقرأت بسرعة ما كتب عن الدير حتى وصلت الى فقرة لم انتبه اليها من قبل ..

– عفوا سنيور لم أشاهد هذه الفقرة قبلاً ..

– سي سنيور .. عفواً .. انه منزلي ..

وقرأت الفقرة بتمعن « أن الدير الآن هو منزل ماركيز دي ميريتو .. الذي بفضله ظل هذا الدير محافظاً عليه .. الخ » .

– عفوا ماركيز دي ميريتو لم أقرأ هذا من قبل .. لقد أتينا من سوريا لنشاهد اسبانيا . فهل من الممكن أن تتيح لنا فرصة مشاهدة المكان ..

والتفت نحو ابنته يستشيرها .. فأشارت اليه أن يذهب معنا بعد أن تحدثا قليلاً ثم ذهبت وجلبت معها مفتاحاً كبيراً ..

* * *

لم اكن اتوقع أن يكون دليـلي في المدينة الزاهرة مركيزاً ولكن جرأة الانسان في الرحلات تعلمه أشياء كثيرة . فقد اكتشفت أن عظماء الناس اكثرهم تواضعاً فلم يخيل الي في يوم من الايام أن أقابل مركيزاً وأسير معه واتحدث اليه بهذا الاسلوب الصريح وكأنه فرد عادي .. أو صديق قديم ..

إن الاخلاق على أي حال صفة من صفـات الانسان سواء أكان مركيزاً أو عاملاً وسواء أكان ممثلاً أو حارساً .. كل يؤدي مهمته في هذه الحيـاة ولا فرق بين هذا وذاك .. سوى بالاخلاق .. التي لمستهاموجودة مع كل انسان فهم معنى الحياة وبعد عن جو التصنع الكاذب الذي لمسته في بيئتي الشرقية ..

ففي بيئتي مـع الاسف الشديد فئـة من الناس تحب المظاهر الكاذبة فبعدت بذلك عن روح الانسان الحي وتلك سيئة من مساوىء المجتمع والبيئة التي قدر لي أن اعيش فيها .. المجتمع المتصنع الذي يبتعد عن حقائق الحياة وروحها .

لقد تعلمت من هذا الماركيز معنى التواضع .. فهو يسير معنا تحت شمـس الظهيره متنقلاً . من غرفة الى غرفة ومن ساحة الى ساحة دون أن يظهر تأففاً أو مللاً فهو سعيد لانه يلبي رغباتنا وهو سعيد لانه بسيط في نفسيته كالطفل البريء يقص لك كل ما يعرف ..

« إن أغلب الذي تشاهده ـ هكذا قال ـ جلب من المدينة الزاهرة ..

فأجبته بأن المدينة الزاهرة كانت رائعـة ولا شك .. وقلت له بأني عربي أتأمل ما صنع أجدادي ..

وكم كانت دهشتي عظيمة عندما أظهر غبطته وفرحه بأن يجتمع مع عربي يشاهد آثار أجداده الثمينة ..

لقد سار بنا الماركيز بعكس الطريق الذي ابتدأنا منه ...حتى ذلك الباب الذي دخلنا منه وحيدين وودعنا بلباقة ونحن ننظر نظراتنا الاخيرة الى الدير والمدينة الزاهرة متجهين نحو قرطبة .. لنأخذ القطار الى اشبيلية ..

اشبيلية

« كل من لم يشاهد أشبيلية لم يشاهد
أعجوبة من عجائب الزمان » .

« مثل اسباني »

أشبيلية

« ان الرحالة القادم من شمالي أوروبة يشعر
بالروح الاسبانية كلما اقترب من اشبيلية ، سواء
اقدم من فاس او من قرطبة حيث يستمتع بالسماء
الزرقاء .. انه يلاحظ في كل بقعة تأثير العرب في
البناء المعاصر ، من كنائس او منازل ، في الشوارع
وفي اللغة والموسيقا وفي كل المعالم وفي احاديث
الناس وبالاجمال في كل عادة من عادات المجتمع .. »
كاتب

اشبيلية ..

الى أين المسير .. وفي اشبيلية ..

الى احياء الغجر لنصغ الى موسيقاهم ونستمتع برقصهم .. أم الى الوادي الكبير نراقب العشاق وهم يتناولون زوارق الأحلام .. أم الى البناء الذي حوى صوراً عن الهند .. أم الى احياء المدينة ..

الى الكاتدرائية .. أم الى الجامعة ..

في اشبيلية ولكن الى أين المسير ..

سؤال غريب لا يسأله الا شخص غريب اختلطت عليه الأمور ونسي أن في اشبيلية قصر عظيم ..

قصر بناه العرب ..

الـ Alcazar الذي ضم بين جدرانه قصة المدينة ..

فاشبيلية هي القصر .. والقصر هو اشبيلية ..

ومشاهدة القصر هي حلم من الاحلام .. فدعنا نسير اليه لنعش مع الاحلام ..

* * *

نحن في ساحة تريئفو الآن ولكن واسفاه .. لسنا في منتصف الليل .. في ٧ ديسمبر حيث يجتمع سكان المدينة ينشدون أناشيدهم المقدسة وينثرون الورود بين أقدام المادونا ذلك التمثال الجميل الهادىء الذي يوحي بالسكوت ..

نحن الآن في ساحة تريئفو أمام القصر .. أمام باب الاسود لندخل من هنا الى ساحة الأعلام . حيث غرست أشجار البرتقال في زوايا هذه الساحة العربية حيث الطيور والعصافير قد بنت أعشاشها في زوايا هادئة ..

نعم .. في زوايا هادئة . فكل شيء هادىء ساكن .. فلا شيوخ تبحث أمور الفقة .. ولا فلاسفة يتناقشون في فلسفة الزمان.. ولا خطيب يسمع صوته مرتفعاً من قاعة العدل ولاعشاق يتلصصون حول قاعة الحريم ليمعنوا النظر الى ذوات العيون السود .. والشعر الاسود الفاحم .. آه .. ولا موسيقى زرياب .. ولا رقص .. ولا شيء مطلقاً ..

صمت ..

صمت كامل وهدوء غريب تتخلله من فترة الى أخرى بعض الاصوات .. أصوات أجنحة الطير وهي ترفرف طائرة نحو الجيرالدا .. وصوت حسون أسود يزقزق قليلا ثم يصمت ..

أواه أين هذا من عام ١١٨١ حيث فكر أبو يعقوب يوسف أن يبني في هذه البقعة هذا التراث العجيب ..

أواه أين هذا من عام ألف .. أو الفين قبل الميلاد حيث بنى الرومان في هذه البقعة قلعة من قلاعهم ..!

أين هذا كله .. أين هؤلاء الناس الذين عاشوا في هذه الرياض... لا أحد .. فكل شيء صامت سوى العصفور الذي لا يزال يطير .. واليمامة التي لا تزال في مكانها ـ منذ أن دخلنا ـ ربما ترتل ..

من يدري .. فلغة سليمان الحكيم مجهولة الآن ..

* * *

يدخل المرء هذا القصر من قاعة الي قاعة مندهشاً لكل ما يشاهد كعادة كل

سائح يدخل مكاناً نسق بشكل جميل جذاب .. ولكن هنا لم ينسق القيمين على هذا المكان شيء بل كان المنسق الاول لهذا المكان التاريخ .. التاريخ التاريخ نفسه ..

فلا تكاد تدخل المكان المسمى الآن بقاعة الملوك الكاثلكيين حتى يتبادر الى ذهنك طبعاً هؤلاء الملوك الذين قطنوا هذه القاعة وتتذكر ولا شك بيدرو الاول الذي جلب أشهر الفنانين من غرناطة .. هؤلاء الفنانين الذين رغم محافظتهم على الأسلوب الغرناطي .. اقتبسوا الشيء الكثير من اسلوب اشبيلية .. وكلا الاسلوبين ذا أصل عربي وكانت النتيجة اننا في قاعة فيها « سيمفونية رائعة من الالوان » الألوان الذهبية .. الالوان الزرقاء .. والالوان آه الخضراء ..

هذه الالوان المتناسقة كما أرادها العرب أن تكون. فكل شيء بناه هؤلاء الملوك الكاثلكيون كان من وحي الطراز العربي الذي بنى عليه هذا القصر ..

يترك المرء هذه القاعة ويسير متجهاً نحو قاعة أخرى تفوقها روعة ... قاعة فيليب الثاني .. ومنها الى قاعة اخرى .. لاننا بدأنا السير على غير هدى ودون مخطط ما فوجدنا أنفسنا في كل لحظة من اللحظات في قاعة تفوق الاولى التي خرجنا منها فمن الصالون الرئيسي الى صالون شارلس الخامس حيث يشاهد الانسان أروع السجاد الاسباني الذي رسم عليه أروع المناظر ويتأمل عدة لوحات زيتية لمشاهير الفنانين ولمشاهير الملوك ..

ويسير المرء الى غرفة نوم الملوك المرا كشيين هذه .. وأية غرف هي هذه زينت جدرانها بالبلاط الجميل وكأنه بني بالامس .. آه أية أحلام كانت تراود هؤلاء الملوك في هذه الغرف إني أترك الامر الى خيال القارىء .. كما أترك الامر الى خيال القارىء أيضاً وأنا أتأمل قاعة العذارى والاقواس العربية الرخامية ذات الألوان المتناسقة.

إلا أن هذا يتضاءل ويزول من الذاكرة في اللحظات الأولى التي يشعر الانسان فيها انه في قاعة السفراء فسقفها الخشبي المحفور آية من آيات الفن العربي

وأبوابها التي من القرن السادس عشر أعجوبة من اعاجيب الفن وجدرانها بلغت حد الكمال في الصنع .

قد يظن البعض أننا نبالغ عندما نقول أن هذه القاعة قد بلغت حد الكمال إلا أنه ليس لدينا ما نقول لهؤلاء الذين يشكون في أن هناك قاعة بلغت حد الكمال سوى ان يشاهدوا هذه القاعة بأم اعينهم ويمعنوا النظر في دقائق زوايا هذه الغرفة ليتأكدوا من ان كل قطعة هي قطعة فنية بحدذاتها بلغت من الروعة بحيث أصبحت جديرة بأن تكون في قاعة السفراء .. وفي قصر الملوك. ولا يكاد المرء يخرج من هذه القاعة ويعود الى قاعات شاهدها منذ لحظات حتى يجد نفسه في ساحة المونيكاس Patio de las Munecas ويشعر بأنه انتقل من اشبيلية الى قاعة من قاعات منازل حي الميدان العربية القديمة واذا هو بقاعة من قاعاتها فنافورة المياه تذكرني بمنزل في دمشق غير ان هذه الاعمدة والنقوش خاصة ولا شك بهذه الساحة الوحيدة في العالم ..

وينتقل المرء وهو يسير على غير هدى الى ساحة دون سيلاس

وهي نموذج حي لاسلوب فن البناء العربي في اسبانيا وقد اضاف عليها بدور القاسي بعض التزيينات على الطراز المراكشي ..

ان اعمدتها الاربع والعشرين تحفة رائعة وخصوصاً عندما ينعكس خيالها على الارض النظيفة ..

ان هذه القاعة قطعة من « ايوانات » دمشق وخصوصاً عندما يقف المرء ويتأمل اصص الاوراق الخضراء ..

ولكن ماذا وراء كل هذا .. ماذا وراء هذه القاعات والصالونات الضخمة سوى قصص الاشخاص الذين بنوا كل هذا .. عواطفهم وحياتهم .. غرامهم ورسائل غرامهم .. وكل هذا يظهر واضحاً جلياً في الطابق العلوي حيث يقطن فرانكو عندما يزور اشبيلية واننا لنحمد الله أننا لسنا في العهد الملكي الآن فقد كانت زيارة هذا المكان بحاجة الى أذن ملكي .. واليوم لا ضرورة لهذا الاذن .. فلنقف قليلاً متأملين سقف قاعة السفراء ولنتجول قليلاً في قاعات الطابق العلوي

ولنبحث عن اللوحات الفنية.. هذه اللوحات التي تسطر حياة كاملة لهذا القصر ولنتأمل لوحة دونا ماريا زوجة كارلوس الرابع لكويا..

ثم لنذهب الى غرفة نوم البزابث حيث نشاهد لوحة منقولة عن موريللو. انها لوحة Ecce Homo .

وأما الصالون المسمى بالازرق فغني بالسجاد الازرق ولوحات مورتان التي تصور عدة ملوك..

وأما الممرات فهي غنية أيضاً بنسخ للوحات الفنان موريللو..

وبالاختصار ان هذا المكان كنز لا ينضب كل يجد فيه ما يهوى وما يحب.. ونحن اذا استغرقنا في الكتابة عنه فاننا لن ننتهي لذلك لنذهب الى الحديقة حيث يجلس الانسان بجوار البحرات ويتأمل السمك الاحمر والازهار البيض التي تنمو في المياه الباردة في حديقة بستان الكريسيرو حيث كانت زوجة الملك بيدرو تحتم..!

زوجة الملك بيدرو القاسي! هذا الملك الذي صرف الكثير على بناء وتزيين هـذا القصر الا انه ولا شك ارتكب جرائم عديدة لا تزال تتردد اصداؤها وذكرياتها في خيال كل من يزور هذا المكان. ويتجول في الحديقة الشاعرية التي يعبق في اجوائها شيء من الوجوم الصامت... صمت الظهيرة في اسبانيا.

في هـذه الحدائق.. حدائق شارلس الخامس بني بين أشجار النخيـل الباســقه البحيرات ورتبت التماثيل بشكل أخاذ ومتناسق بحيث يشعر المرء بأن الاشخاص الذين بنوا هذه التماثيل كانوا فنانين حقاً فأختيار المكان اللائق للتمثال يحتاج الى ذوق سليم أيضاً.

وبينما نحن هكذا في تجوال مستمر لم نشعر الا والساعة تقارب الواحـدة وان وقت الزيارة قد انتهى..

وأسفاه ليس لدينا الوقت الكافي للمكوث في هذه الحدائق والبساتين.. ولا بد من وداع الحدائق بنظرة عجلى لنخرج الى خارج القصر أو بالاحرى الى الامكنة التي كان القصر قد بني عليها لان أجزاء القصر الاخرى هي في الواقع خارج

جدرانه الحالية ..

في ساحة سانت توماس كان برج عبد العزيز .. فتصور ..

. . .

نحن خارج القصر الآن ، نتجول في المدينة التي بنيت دون مخطط كما يقول المهندس الاسباني كومبس استرن .. فشوارعها - كما يقول وفي الواقع - تقود الى بعضها بعضاً فلا يشعر المرء الا أنه في نفس المكان الذي بدأ منه ..

ومن المدهش محافظة هذه المدينة على الطابع الشرقي العربي الذي يشعر به المرء دون مجهود ما لأنه واضح جلي ويستطيع الانسان أن يقرأ تاريخ هذه المدينة العظيمة من خلال أبنيتها وحاراتها التاريخية ودون حاجة - ربما - الى الرجوع الى ابن عبدون الكاتب العربي الاشبيلي الذي سجل كل ما في القرن الثاني عشر من عجائب في هذه المدينة... هذا الكاتب الذي يقول عنه رافائيل لوفون في كتابه عن اشبيلية : « لقد قيل ان كتابات ابن عبدون كانت كالنافذة المفتوحة التي يشاهد فيها الانسان كل شاردة تجري في الوادي الكبير وفي اشبيلية » .

ان من يريد أن يشاهد كل شاردة تجري في اشبيلية الآن عليه ان يصغي بقدر ما يستطيع إلى أصداء الفلامنكو .. الرقص الاسباني الذي منبعه من اشبيليه كما يصغي إلى الغناء الذي مصدره اشبيلية .. الاندلس . ليدرك تماماً مدى قول أي فتاة من برشلونه عندما يسألها أن تغني له فتجيبه أنها من كاتالونيا وليست من الاندلس ..

وهذا يعني أنها لاتجيد الغناء كأهل الاندلس ... لان المصدر الحقيقي للرقص الاسباني هو الاندلس .. إن لم نقل اشبيلية ..

ومنعاً للتكرار فقد فضلنا دراسة الرقص الاسباني والغجري في بحث غرناطة حيث ساعدتنا الظروف على زيارة الغجر في غرناطة والحياة معهم فترة وجيزة بينما لم تساعدنا الظروف على الاختلاط مع الغجر في اشبيلية ..

إلا أنه لابد من التنويه ان اشبيلة مشهورة برقص أهلها وغنائهم .. وخصوصاً في الاعياد التي لامثيل لها في هذا العالم قبل أن نقول أنها مشهورة بكاتدرائيتها

هذه الكاتدرائية التي لولا وجود الجيرالدا فيها لكانت كاتدرائية عادية هذه المأذنة التي تذكرنا بالجامع الكبير الذي كان هنا والذي أصبح الآن كنيسة واسمه تحوى على كنز لا يقدر من اللوحات الفنية والتماثيل الدينية الرائعة ..

هذه الكنيسة التي يبلغ طولها ١١٦ متراً وعرضها ٧٦ متراً وأعلى ارتفاع فيها ٧٦ متراً .. وانها لتذكرنا طبعاً بدير الاسكوريال بجوار مدريد الذي قال عنه النقاد إنه « دير واسع » لاتناسق فيه ولا جمال .. وكأني بهؤلاء الذين يأمرون بتشييد مثل هذه الكنائس يطلبون أن تكون ضخمة فيفكر مهندسوها مباشرة بحجمها فيوسمون البناء الذي لاينتهي في قرن واحد فيصبح بعد عدة قرون مشهوراً بوساعته وضخامته ومهلاً في الواقع من الناحية الفنية لانه غير متناسق عملياً وكيف يكون متناسقاً وقد عملت فيه اذواق متعددة ..

صحيح أن هذه الكنيسة قد كلفت الملايين « وقضى اربع قرون بعد بنائها في تزينها لتكون صالحة ككنيسة للرب » إلا أن كل هذا لايضاهي في الواقع جمال المأذنة .. الجيرالدا ...

وإن في هذا لدليل واضح أن الانسان وحدة قائمة بذاته ينتج عملاً قائماً بذاته فروحه الخالده ستعطي ماينتجه طابعاً خاصاً .. يشوه تشوبهاً كاملا اذا فكر آخر في اضافة شيء اليه .. لان ما ينتج بعد هذه الاضافة هوما يريده الشخص الآخر لا الاول .. لذلك تجد ان الاعمال التي قاومت الزمن لاتزال تحافظ على الروح الاصلية لها ذات جمال وذات روعة ، أكثر بكثير من روعة الاشياء التي أدخل عليها أشياء جديده مع مرور الزمان لان الاولى لها طابع خاص وأما الثانية فلها طابع أيضاً فيــــه مزيج غير متناسـق من عناصر شتى فكيف يحافظ على جماله وقد تحول إلى كنيسة ! إني اشك في هذا الجمال .. لان الجولة البسيطة التي يتجول فيها الانسان في هذه الكاتدرائية مثلا لتجبره على الشعور بأن كثرة هذه الابواب وهذه المذابح وكثرة هذه اللوحات التي تكاد تكون متلاصقة ليست إلا تصنع كاذب لايجاد عمل ضخم عظيم خدع اصحابه بحجمه لانه لاروح فيه ولاطابع له ..

ان الفنان ليجد في احد شوارع اشبيلة التي لايمر فيها سوى عربة واحدة ذات الطابع الخاص موضوعا رائعاً بينما ربما لايجد في هذه البقعة أي موضوع سوى

الجيرالدا التي وهبت اشبيلة صفة خاصة بها .

* * *

اشبيلة هي كأخواتها من مدن الاندلس قصة من القصص الرائعة التي يفتخر التاريخ بها فهي كأخواتها أعجوبة من العجائب التي انبعثت عن عبقرية العرب في الاندلس ..

في هذه البقعة .. على الضفة الشمالية من نهر الوادي الكبير تقع المدينة تحت رحمة هذا النهر الذي يهدد المدينة بفيضانه كما فاض عام ١٦٢٦ فأزال ثلاثة ارباع المدينة

ياله من نهر عجيب ! بنى الرومان على ضفته الشمالية مدينة Betis لكي تكون مركزاً لهذه الاراضي الخصبة التي هي شبيهة بأراضي الغوطة في سورية . . لذلك فاشبيلية هي من أقدم ممالك الاندلس التي بنيت في الوادي الكبير ..

ولكن اسمها هو من مصدر عربي فمصدر كلمة Seville هو اشبيلية وقد كان اسمها في عهد الرومان Romulà Augusta أما في الايام القديمة قبيل الرومان فكان اسمها Hispali

لقد قطنها الفينيقيون ويقال أن الشخص الاول الذي فكر في بناء هذه المدينة هو هرقل..ويقال أيضاً أنها هي المدينة الملقبة بـ Tarsis التي زارها سليمان الحكيم..

ويقول المؤرخ استرابون انها كانت مدينة تجارية في عام ٦٠٠٠ ق . م وهي المكان الذي كان يزار من قبل اسطول سليمان الحكيم مرة كل ثلاثة أعوام وخلال هذا التاريخ الحافل .. هناك من يقول أنها صورة الاسطورة اتلانتي..

* * *

تاريخ

تاريخ حافل لمدينة نائمة الآن ..

وكأنها في حلم شاعري لانهاية له .. حلم مستمد من نهر المدينة والزوارق التي تقل العشاق في جولة مسائية

اننا نسير بجوار النهر ومن بعيد تبدو الجيرالدا مهيمنة على المكان؛على العاصمة

• • •

جولة في اشبيلية .. أو بالاحري قل جولات في اشبيلة في أحيائها القديمة والحديثة .. بين قصورها وخرائبها بين بساتينها واطلالها وبين أماكنها المأهولة .

ولكن ماذا توحي لنا هذه الجولة .. سوى أن هذه المدينة كغيرها من المدن الاسبانية العربية التي تعيش على ذكرياتها .. ومن منا لايعيش على ذكريات جميلة مرت به مرور الكرام ...

ان هذه المدينة رغم أن قيصر هو الذي بنى جدرانها الأول ورغم أن القوط عاشوا فيها الا أنها تعيش الآن فقط على ذكريات العرب فهم أول من خلقوا فيها « غوطة » كغوطة دمشق « وان في مخطوطة ابن صاحب الصلاة الموجودة حالياً في اكسفورد لخير دليل على أن العرب هم الذين نظموا الري فيها أيام الموحدين »

وان الظلام أرخى ستاره عليها منذ القرن السادس عشر عندما أعاد فتحها فرناردو ولم تتقدم كثيراً رغم أن فريدناند الثالث اختارها مركز عرشه ...

هذا ولاشك بأنه من الواجب علي قبيل أن أختم هذا البحث القصير عن اشبيلية ان أنوه على أنها تضاهي دمشق في مطبخها « فالأكلات » المتبكرة والخاصة باشبيلية هي من الروعة لكل شخص مثلي « يحب بطنه » ويفتش دوماً عن أنواع جديدة من الطعام ..

ان اشبيلية بحق رائعه وان ضيق الوقت هو الذي يدفعنا الى مغادرتها الى الجزيرة الخضراء لنسافر منها إلى مراكش العربية « المسماة حالياً وموقتاً مراكش الاسبانية » ومن ثم لنعود إلى أروع مافي اسبانيا أو اوربا قاطبة الى غرناطة فالى الجزيرة الخضراء الآن ..

الليل .. والعيد

الجزيرة الخضراء .. صامته صمتاً غريباً من نوعه .. صمتاً فيه كبت غريب لما يجري في الخفاء ، تحت ستار الصمت الذي يخفي مؤامرات رهيبة تجري في الليل وفي النهار .. ولكنه صمت مطبق لا يلاحظــه الا بعض الاشخاص الذين يتأملون ما يجري في زوايا الطريق وفي خفايا الليل الرهيب الذي يضم حوادث غريبة ربما لم تقص بعد ، فهذا المهرب الذي يحاول أن يبيعك سيكارات أو ساعات ذهبية (على حد قولة) مهربة من جبل طارق .. وذلك المجرم الذي يقبع في حانات الليل منتظراً ساعات الصباح الاولى ليسافر الى طنجـة ، البـلد الحرة التي تحوي غرائب هذا العالم .. وذلك الذي يسير الهوينا متلصصاً هنـا وهناك وهو الاسباني الوطني الذي يتأمل جبل طـارق بصمت ويستغرب كيف أن الانكليز لا يزالون يحتلونه ..

صمت غريب يحيط بهذه المدينة في هذه الظهيرة التي جلسنا فيها في حديقـة المدينة نتـأمل اشجار النخيل الخضراء وبحيرات الميـاه التي صنعت على طراز شرقي صرف ..

في هذه الحديقة .. بل في هذه الارض التي كانت أول مكان هبط فيه العرب الى اسبانيا .. أول مكان شهد قصة من أغرب القصص في الفتح العربي وشهد أول هذه القصة .. وربما آخرها .. هذا المكان الذي يبدو حتى الآن قطعة من الشرق الحالم .. الشرق الذي فكر في يوم من الايام أن يوسـع أفقـه وحدوده فوسعها بشكل شريف .. جميل ..

هذه الارض التي شهدت اجمل قصة تاريخية عرفها التاريخ .. قصة العرب في اسبانيا .. هؤلاء العرب الذين قال عنهم ستانلي موجزاً بكلمات قليلة تاريخاً حافلاً : قال: « يجب ان لا يحول ببال احد ان العرب عاثوا في البلاد أو خربوها

بصنوف الارهاق والظلم ، كما فعل قطعان المتوحشين قبلهم ، فان الاندلس لم تحكم في عهد من عهودها بسماحة وعدل ، وحكمة ، كما حكمت في عهد العرب الفاتحين .

نعم لقد شهدت الجزيرة الخضراء .. اول هذه القصة عندما وقف طارق وقال في القوم خطبته المشهورة : البحر ورائكم والعدو امامكم فأين المفر !..

ولم يكن هناك مفر طبعاً فقد انتصر العرب لانهم كانوا مؤمنين .. مؤمنون بعقيدتهم وبربهم . مؤمنون بأعمالهم وبأسلحتهم .. مؤمنون برسالتهم في هذا العالم الواسع .. الرسالة التي لم يتموها بعد ..

* * *

الجزيرة الخضراء ..

نعم الجزيرة الخضراء ولا شيء مهم فيها .. سوى هذه الذكرى الجميلة لفتح العرب لاسبانيا .. فلننتظر المركب اذاً لنسافر الى طنجة .. ولنشاهد هذه البقعة من الارض التي يقولون عنها انها دولية .. ولنشاهد البلاد التي يقولون عنها مراكش الاسبانية .. مع الاسف .. والتي يعلم الجميع ان طنجة هي بلد عربي .. وانه ليس هناك مراكش الاسبانية .. بل مراكش العربية ، مراكش العربية التي مها بلغت من السعادة في صداقتها مع الاسبان فهي أولاً وأخيراً عربية ويسميها الناس بأي اسم آخر .. ولكنها لنا مراكش العربية ..

* * *

مضت لحظات الانتظار الطويلة . وتناولنا تذكرتنا الى طنجة وتأشيرة الخروج من اسبانيا وسرنا بهدوء نحو الباخرة مؤملين برحلة من أجمل الرحلات لاننا سنزور بلاداً عربية تشاركنا في اللغة والدين وفي التاريخ والحضارة .. ولكن لم يكد موظف التذاكر يؤشر على تذكرتنا .. ودخلنا ولم نكد ندخل .. حتى طلب منا البوليس العالمي الجوازات وقال ..

— من سوريا .. ونادى صديقه ..

– انتم من سوريا !..
– نعم ..
– آه آسف ممنوع لكم دخول طنجة !..
وكانت مفاجأة .!
مفاجأة لم تكن في الحسبان. ممنوع ان تدخل طنجة.. غريب ولكن لماذا ؟
وكأنه قد حضر الجواب في الفترة التي كنت احدق به مستغرباً .. وبدأ يقلب صفحات الجواز..وقال لا يوجد هنا تأشيرة لطنجة فأجبته ولكن طنجة لا تحتاج الى تأشيرة .. فهي مدينة عالمية .. وكل من دخل قبلنا الباخرة ليس لديه تأشيرة ..
– هذه هي التعليمات ..
– تعليمات .. اية تعليمات ..
– لا وقت لدي .. ممنوع دخول طنجة .. وناولنا جواز السفر ..وطلب الى بوليس آخر ان يعود معنا لاعادة التذاكر .. ثم .. لاعادة تأشيرة الخروج من اسبانيا ..
وكانت لحظات .
لحظات تصورت خلالها هذه العدالة الغربية في هذا العالم ان يحرم مواطن من زيارته وطنه .. لا لسبب سوى انه يريد ان يشاهد ارض اجداده ..
نعم لم يكن هناك سبب رئيسي عنعنا من السفر سوى أن في المدينة البيضاء الآن ثورة .. وان البوليس العالمي يخاف منا ان نلتحق بأخواننا الثوار .. الثوار العرب الذين يريدون أن يمنعوا عنهم كل موازرة تأتيهم من العالم العربي لانهم في خوف .. خوف دائم من العالم العربي الذي استيقظ فيه افراده وبدأوا يشعرون أن وطن كل منهم .. هو العالم العربي برمته ..
كانت لحظات .. لحظات اليمة حقاً لاننا حرمنا من رحلة من أجمل الرحلات ..
ولقد علمنا سبب المنع هذا من البوليس الاسباني لاننا لم نكد نعود اليه وقص عليه القصة حتى استغرب ولكنه لما علم اننا عرب ابتسم وزالت علائم

الاستغراب من وجهه ..

ولم نتمكن من نسيان هذه اللحظات إلا بعد ان علمنا ان في مدينة لينيا عيد .. وأنه لا شيء في الجزيرة الخضراء يستحق من الانسان المكوث من اجله .. لذلك قررنا السفر الى هذه المدينة في الليل عسى ان يكون في هذه الزيارة عزاء لنا ..

* * *

الليل .. الليل دون قمر .. والزورق البحاري يقلنا في الساعة العاشرة بإتجاه جبل طارق .. ولاول مرة شعرنا بالبرد .. البرد في هذا الظلام المخيف .. فنحن لا ندري إلى اين يقودنا الزورق ..

انوار خافتة تنبعث من الجزيرة الخضراء ثم تختفي .. وانوار الزوارق منعكسة على سطح الماء فتضفي على المكان صورة دراماتيكية خاصة مما يزيد في شعورنا بالجو الغريب الذي يحيط في هذه المنطقة الخطرة ..

وتختفي الجزيرة الخضراء .. ونحن في البحر نكاد لا نشاهد احداً .. فالليل مظلم قاتم والهواء البارد لا يزال يؤذينا ..

وكأنما شعر الشاب الذي يجاورنا بأننا غرباء فبدأ الحديث معنا مما جعلنا ننسى الوحدة الموجودين فيها .. وكأنما الاقدار هي التي ارسلت لنا هذا الشاب ليسير معنا في لينيا بلدته التي تفرح اليوم بعيدها .. عيد لينيا ..

وكان عيد .. عيد لن انساه مادمت حياً ..

* * *

نحن نسير في شوارع لينيا متوجهين نحو هالة من نور تنبعث فيما يبدو من قلب المدينة .. قلب المدينة النابض بالحياة في هذه الساعة من الليل .. فالمدينة برمتها اجتمعت في هذه الساحة .. وليس عليك إلا ان تتأمل الاسبان وهم يتوجهون بملابسهم الجميلة الى الساحة .. ملابسهم الملونة المرحة .. وشالاتهم المطرزة الرائعة .. ووجوههم .. آه .. وجوه بعض فتياتهن الجميلة التي لا يضاهيها سوى جمال وجه الفتاة التي تحبها .. ووجوههن التي تبتسم ابتسامة تجعل شخصاً من

طرازي بقدس الجال .. تجعله يزداد تقديسا لهذا الجال وهذه العيون وهذه الشفاه .. التي ان كانت جميلة فلأن في اصحابها نفوساً طيبة وقلوبا عامرة بالحب والسعادة ..

الجال .. الجال الاسباني . الذي نشاهده الان فكل فتاة لها طابعها الخاص وجمالها الخاص .. وخصوصاً في هذه الليلة في العيد ..

وصلنا الساحة .. واية ساحة زينت بالانوار الكهربائية في كل زاوية ... وارتفعت اصوات الموسيقى من كل جانب حتى اصبح من العسير أن نختار اتجاها معينا لنصغي الى هذه الموسيقى لذلك تدنو من اقربها اليك فتشاهد شيئاً عجيبا حيوية غريبة من راقصة ترقص لحظة وتقف اخرى لتغني من صميم قلبها : احبك .. وتدعو الناس للرقص .. للرقص .. للرقص .. فينهض الجميع ويرقصون .. ويرقصون .. ويرقصون .. ولاتجد نفسك الا في هذا الوسط الغريب من الرقص .. الا وانت تطلب يد آنسة .. وترقص .. وترقص .. وترقص .. حتى تنسى ان هناك مكاناً آخر يجدر بك وان الساحة تحولت الى مرقص علم المدينة برمتها .. المدينة الراقصة التي لا تعرف الوقت ولا تنظر اليه ..

وتذهب الى مكان آخر فتجد نفسك في مكان أروع من الاول .. وتجلس على طاولة خشبية صغيرة متواضعة وتتأمل هذه الوجوه الغريبة .. الوجود التي تذكرك بوجوه لوحات الفنانين الذين يعبرون عن البؤساء وهم يبتسمون .. وهم يرقصون فتجد في رقصهم وفي ابتساماتهم تعبيراً لا تشعر إلا وانك أمام خلائق حية وارواح تكاد تتكلم عن الزمان .. وعن الحياة ..

آه ما اغرب هذه الوجوه التي تشاهد .. هذا العجوز الذي يرقص مع تلك المرأة المسنة .. آه أي وجد عميق يملأه ثم وذلك الشاب الذي ارتدى أجمل ماعنده فبدى وكأنه دمية جديدة وتلك الشابة التي يكاد فمها الاحمر يغريك .. أعوذبالله يغريك ، او ذلك الطفل الضاحك الذي ينتقل من مكان الى مكان هارباً من والده ..

اية وجوه هذه واية حياة هنا ..

ولكن الساعة .. آه ليتنا لم ننظر اليها .. انها الرابعة صباحاً . وقدغادر آخر زورق المدينة الصغيرة الراقصة الى الجزيرة الخضراء في الثانية عشرة ليلاً .. آه .. الوقت . الوقت الذي لم نشعر به ..

ولكن دعنا نذهب .. نذهب على ان نجد زورقاً .. كلا .. فالنظام نظام .. لم نجد في الميناء احد ..

امواج البحر تلتطم بالشاطئ والطبيعة في اروع لحظاتها ولكن الوحدة مخيفة .. مخيفة حقاً .. الا ان هذه الدقائق التي تتأمل فيها المضيق .. مضيق هرقل او بحر الزمان الذي عرف فيما بعد بجبل طارق والليل .. « ليس دونه نجوم » هذه هي ولا شك من أروع لحظات الصمت التي تكون فيها مع نفسك وتقول .. آه .. الحياة .. الحياة غريبة .. وتبتسم بمرارة لان الاشخاص الذي تحبهم ليسوا معك في هذه اللحظات العميقة التي يصعب وصفها .. لذلك تتمنى أن يكونوا معك ليعانوا نفس التجربة التي تعاني .. ويعيشوا نفس الحياة الجميلة التي تعيش ..

نعم تبتسم وانت تعود .. لتفتش لك عن مكان تستريح فيه ولا مكان فيرشدك حارس الليل الى السيارة التي تسافر في السادسة من اينتا هناك حيث تجتمع مع امثالك من المنتظرين فتتحدث معهم عن مغامراتك ويتحدثون معك عن مغامراتهم حتى الساعة السادسة .. عندما تسافر الى الجزيرة الخضراء ثانية .. لتغادرها الى غرناطة وفي نفسك لوعة .. لان الايام ليست كلها اعياد .



غرناطة

شام الاندلس

« لو كنت عربياً لفكرت دوماً وأبداً
باستعادة هذا المجد العظيم ... الذي
بناه العرب في اسبانيا »

« كلون »
كاتب ورحالة أسترالي

مدينة القدر ..

أغرناطة العليا بالله خبري   ألهائم الباكي اليك طريق

« شاعر »

يخضع الانسان في حياته إلى عناصر طبيعية فوجوده في بيئة معينة يتأثر بها حتمي ولاشك فهو خاضع للعناصر الجغرافية كالمناخ والمكان وغير ذلك ويستطيع المرء أن يلمس تأثير هذه العناصر المادية على حياة الانسان بسهولة ولكن هناك أشياء أعمق من تلك العناصر العلمية المحضة التي تؤثر على حياة الانسان وأعني بهذا الشيء العميق : القدر .

فالقدر عنصر كبقية العناصر في هذه الحياة ولا مناص من الاعتراف به ان قدر لي أن أزور المدينة التي بناها القدر ... وهدم مجدها القدر وكأنه أراد بذلك أن يترك في هذا العالم اثراً مادياً ملموساً فوهب العالم مدينة لاشبيه لها .. وهب العالم : غرناطة ..

لقد أحب القدر أن يعبر عن نفسه بشكل مادي فخلق غرناطة ... المدينة ذات الطابع الخاص بها .. وذات الكيان العجيب الذي سنبحثه في فصولنا التاليه .

إن غرناطة مدينة التاريخ الحي الذي لم يبعثر وقائعه وصداه على صفحات شعرية فقط وانما وهب الجو الخاص في هذه المدينة صفة قلما يشعر بها الانسان في مكان غير غرناطة ..

فهذا الصمت الغريب الذي يخيم على جو المدينة يخلق لها روحاً غريبة ..روحاً تكاد تكون اسطورية لشدة غرابتها فهذه الارض الواقعة بالقرب من السيرانيفادا.. التي هي من أعلى جبال أوربا شهدت انسان ماقبل التاريخ يصارع الحياة..وشهدت انسان العصر الحجري والحديدي والنحاسي يحاول جهده أن يتغلب على الشقاء. وشهدت الفينيقيين يتجولون في أراضيها ليبنوا مدينة ساكسي Saxi الميناء

التجاري الذي هو الآن المونيكار Almunecar ... وحتى يوليسز بطل هومر أطل على هذه الارض وخلد فيها اساطيرا ..
ولكن العرب هم الذين بنوا غرناطة وجعلوا اسمها في التاريخ عاليا فقد كانت مركزاً للحضارة الاسلامية حتى الثاني من كانون عام ١٤٩٢ عندما أعاد فتحها فريد ناند الارغواني .. الذي لم يكد يمضي على مكوثه فيها بضعة أشهر حتى وقعت الوثائق التي سمحت لكولومبوس بأن يقوم برحلاته الاولى التي اكتشف فيها العالم الجديد. بواسطة رجال من الاندلس ... هؤلاء المكتشفون الذين أوجدو عالماً جديداً قال عنه (كاون) الكاتب الرحالة الاوسترالي عن سكانه ما يأتي: «إن اسبان امريكا الجنوبية يتكلمون بلغة أهل الاندلس لان اكثر الحملات التي غزت العالم الجديد أبحرت من نهر الوادي الكبير من القسم الغربي في اسبانيا .. من الاندلس حيث ينتمي الانسان هناك إلى اجداد من العرب ...

ان هذا لدليل كبير على أن سكان امريكا الجنوبية يجول في دمهم دم العرب.. وهكذا فان العرق العربي توسع بشكل غريب، شرقاً من الجزيرة العربيـة إلى أفغانستان .. الهند .. ملايو .. اندونيسيا .. وجزر الفيليبين وغرباً من افريقيا الى اسبانيا .. ومن هناك إلى الامريكيتين .. انهم عملياً أحاطوا بالكرة الارضية .. نتيجة رائعة لقبائل كانت في الاصل من سكان البدو في الصحراء ..» ..

نعم نتيجة لم تحلم امة من الامم بمثلها .. ولم تحلم ببناء مدينة كغرناطة لان هذه المدينة إن كانت تفخر بشيء – فانها تفخر بوحدتها وبكونها من اروع مابناه العرب في هذا العالم .

لاشك بأن زيارته الحمراء هي أول مايقوم الزائر به عندما يصل غرناطة ، ولا شك بأن الحمراء يحتاج إلى أيام معدودات كي يستمتع به الانسان وهذا ما أجبرنا على زيارته عدة مرات ولكن في كل مدينة اماكن تستحق الزيارة .. والجولات ومن هذه الاماكن جبل ساكرومونتة Sacromonte الذي ينسى الاكثرية من السواح زيارته لانه حي الغجر وبعيد نسبياً عن المدينة
إلا أني شغوف في الواقع بهؤلاء الغجر لذلك دعنا نذهب اليهم أولاً وخصوصاً

بعد أن تعرفنا بفتاة افرنسية في الفندق وهي تحب زيارة الغجر أيضاً الا أنها تخاف أن تذهب لوحدها : ولم نعرف - الا بعد فوات الاوان - أن الشاب الذي يسير معها غجري بالفطرة ..

* * *

نحو ساكرومونته نحن نسير وبالقرب من نهر الدارو الاحمر اللون .. وبجوارنا قصر الحمراء الذي يعكس الوانه الحمراء على كل ما في غرناطة :

وأقدامنا الحيرى تسير ببطء متخيلة الشهداء الذين قضوا نحبهم في تاريخ اسبانيا بجوار هذا النهر الحزين الذي بدأ يجف ليصبح قطرات مبعثرة هنا وهناك ..

قطرات الدموع في وادي الدموع حيث نسير الآن متجهين نحو الجبل المقدس نحو ساكرومونته .. البقعة التي هي أحب شيء إلي في اسبانيــــا برمتها .. فروح سكانها خلقت في جسدي وفي طابعي لان روح سكانها هي روحي لذلك كنت أبدو غريباً في بيئة لاتمت إلى روحي بصلة وإلى طابعي بأية علاقة ..

كنت أسير الهوينا غير آبه بالفتاة الفرنسية التي تسير معي وهي معتقدة أنها وجدت في العشيق الذي تحلم به .. شاب مغامر أفاق .. ولم أكن آبه بجدائل شعرها الاسود ولا بجسدها العاجي ولا بعينها الواسعتين المنبثق منها بريق الشهوة .. لم أكن آبه بها اطلاقاً لانه في هذه اللحظــة بالذات كنت أسير نحو الفئة من البشر التي أخترت انفسي أن أعيش حياتها قدر المستطاع ..

نعم لم آبه بها لاني كنت أسير نحو الغجر فلا نزال في الواقع نسير نحو الجبل المقدس .. ويد تداعب يدي وقلب لا يداعب قلبي وفم يتحدث بصوت الحب قائلاً :

- صامت .. ولمَ .. !

- القمر جميل وغرناطة تبدو حزينة ..

- غريب .. غريب جو غرناطة هذه .. ان الحزن بعض الاحيان يعربي

- حزن الحب ولا شك ..

- كلا فأنا لا أعرف الحب بعد .. ولكن اشعر بعض الاحيان بحزن غريب

– انها غرناطة .. جوها غريب
– ربما ..
– لا شك بهذا ولا شك بأن الحزن سيبعد عنا عندما نصل الفجر فرتصم وغناؤم سينسينا ذكرياتنا ..
قلت هذا وداعبت بيدي يدها ..

* * *

نحو الجبل المقدس لانزال نسير
والحمراء لا يزال يبدو لنا كلما التفتنا قليلا .. الحمراء بكل ما حوى من تراث ومن قصص ..
– أين نحن الآن .. قالت هيلين
– نحن مقابل الحمراء.. على هضبة بجوار نهر الدارو وبالقرب من حي البائسين
– حي البائسين .. ماذ .. ! البا .. ك .. سين . انها كلمة غريبة
– ليست غريبة بالنسبة إلى . . انها عربية وتعني حي الفقراء والتعساء من الناس ...
– انها حينا إذاً ..
– وهل أنت فقيرة ..
– نعم وتعيسة
– يجب أن لا تقولي هذا وأنت جميلة لاتزالين في التاسعة عشرة ..
– كراسيا .. ما رأيك إذا استرحنا قليلا في حي البائسين .. ثم تابعنا سيرنا نحو الجبل المقدس ..

. . .

الليل والقمر والفتاة الحسناء وحي البائسين تضفي على نفسي شيئاً غريباً من الدهشة يزيدها اضطراماً نظرات كل عابر سبيل ..
أين أنا الآن .. !
في حي من الاحياء التي بناها بنو قومي ... في حي من الاحياء التي بناها بنو قومي .. في حي من الاحياء العربية التي شهدت عصر العرب في اسبانيا .. شهدت

حياة الرجال العادين الذين قدر لهم الحياة في أزهى وفي أقسى العصور ...

كان خيالي يحلق بعيداً عنـــدما شعرت بيد تلعب بيدي .. فانتبهت إلى ما حولي وإلى فتاتي الحسناء التي بدي عليها عدم الارتياح إلى شرود ذهني ..

وبدأت أقص عليها قصة هذا الحي الذي يقول عنه ف . ب موريتو : (وهي بالتأكيد لم تكن تصـغ الي قدر ما كانت تفكر في اشياء لا أدري كنهها):

« إذا كانت غرناطة تقدم لنا هذه التراثات الفنية لاكثر التيارات الفنية .. في عصر النهضة والفترة الـكلاسيكة الجديدة فإن حي البائسين هو الشاهد الحي للقوة العجيبة الخالقـــة الموجودة في العبقرية العربية ... هؤلاء العرب الذين كانوا أول من اعطو هذا القسم القديم من المدينة طابعاً خاصاً ..هذا الطابع البعيد جداً عن ترف الحمراء وجنة العريف » .

نم ففي هذا الحي عاش العرب ومن هذه المياه شربوا وفي هذه الزوايا جلسوا يتحدثون عن غرام الاميرات وغرام احمد الامير الحاج إلى كعبة الحب .. وفي هذه البقعة كانت خيولهم المطهمة تصهل وفي هذه الغرف كانت حياتهم عادية فيها جو خاص أوجدوه في هذه المنطقة البعيدة عن وطنهم الاول دمشق فلا يكاد المرء يجتاز الساحة الجديدة Plaza Nueva ويصل إلى ضفاف الدارو الذي يذكره بيردى ، هنا حيث يبدو قصر الحمراء بجلاله ويشاهد الانسان كنيسة القديسة آنه المبنية على انقاض جامع كان المؤذن يؤذن فيه خمس مرات والبرج المصنوع على الطراز العربي..وبالقرب من هذا المكان ال Banuela التي كانت حمامات مراكشية.

وليس هـــذا كل ما يوجد في هـذه المنطقة . ففي هذا الحي مدرســـة الدراسات العربية التي هي الآن بيت شابث Casa de chapiz حيث اجتمع الذوق العربي المسلم والذوق المسيحي في طراز البناء موحدمو حدين تحت اسم الطراز الغرناطي

وفي الواقع نحن الآن حقاً في حي من احياء العرب في مراكش وبالقرب منها دار البهورا Parrahora دار محمد أبو عبدالله ..

وبينما نحن نسير .. دون هدف اذ بنا في حي سـان نيكولاس حيث أرغمنــا المكان على المكوث قليلاً متأملين جبال السيرانيفادا وقصر الحمراء أمامنا وجنة العريف تحيط به وهذا دليل آخر على حسـن أختيـار العرب للاماكن الصالحة

للبناء وإن حي البائسين برمته قد بني ليبهج الطبيعة، مضطجعاً على منحدر ربوة وقد بعدت حدائقه الواحدة عن الاخرى ، ففي كل زاوية يقف فيها المرء في هذا الحي يستطيع أن يشاهد مناظر الطبيعة التي تبهج الحواس .. أن اكثر مظاهر البيوت المتواضعة في حي البائسين صدى عميق للعرب والطابع العربي ولهؤلاء الذين قطنوه ولعبوا دوراً هاماً لان تأثير هذه الروح يمكن أن ترى حتى الآن في هذا الحي حيث يعيش الناس في مجتمع سعيد دون التفريق بين الطبقات ».

ماذا أصف في هذه البرهة التي اتخيل فيها ثلوج السيرا وقصر الحمراء .. بل ماذا أشعر في هذه اللحظة التي يندمج فيها الانسان مع الطبيعة فينسى نفسه وينسى كل شيء ففي هذه اللحظة الغريبة لم أعد أستغرب أن يكون كل من في اسبانيا في عهد العرب شاعر وكل من في اسبانيا الآن عاشق . ولم أعد أستغرب لماذا قطن الغجر بالقرب من هذه المنطقة ولماذا أحبوا الحياة رغم الفقر المدقع الذي يحيط بهم .

إنهم يستمتعون بأجمل ما تهبه الطبيعة من جمال ومن حياة ..

كل شيء يكاد يكون هادئاً حولنا سوى أن الاطفال الصغار بدأوا يتجمعون حولنا محلقين في وجوهنا التائهة الغارقة في احلام عميقة ..

أحلام لم تتحقق بعد ..

مشاهدة الغجر ..

والغجر .. أحب الناس إلى قلبي فلنذهب اليهم سريعاً ..

وبدأنا السير هذه المرة نحو الجبل المقدس .. دون توقف ودون خيال .

فقد وضعت يدي بيد الافرنسية وسرنا حتى وصلنا المنزل الذي هدانا اليه صاحب الفندق لنشاهد حفلة من حفلات الغجر التي يقيمونها عادة للاجانب ..

. . .

واستقبلنا النور بابتساماتهم الطويلة وكأننا فريسة مدهشة يستطيعون نهبها ..

استقبلنا النور وعلى وجوههم ابتسامة الاستهزاء وابتسامة الاحترام بعد ان شاهدوا جمال صديقتي ..

ولم نكد نجلس على كراس بالقرب من سكران ينظر بذهول إلى هذه الفئة من البشر ..

وكانت حادثة ...

حادثة لم أكد أسمع ترجمتها من الفجري بطلها حتى اكبرت فيه بطولته .. واكبرت فيه شرفه .. وجلست مطمئناً بعد أن آمنت بأنه لن يسرقني أحد ...

لقد قال الفجري حرفياً :

إن هذا الاحمق .. يأتي الى مكان كهذا مصحوبا مع زوجه وهو سكران بدرجة فظيعة .. وينسى أن معه زوجته وعليه أن يحميها .. ففي كل مكان يوجد أشرار .. ومن يدرى ماذا سيحدث لزوجته وهو في هذه الحالة من الخربطة .

— وماذا فعلت أنت ..

— لقد طلبت له تاكسى وارسلته وزوجته الى الفندق ..

هذا أول ماسمعته في هذا المكان الغريب ..

• • •

نحن في فسحة الدار وعلى اليسار منا جلس النور على خشبة ووجوههم التي تكاد تتحدث عن اساطير خرافية لامكان لذكرها الآن لاني كنت ابحث عنى ان أجد امرأة جميلة بينهن ..

ووقعت أنظاري على أجملهن ...

وكانت ابتسامة — لم اشعر بعدها إلا وبيد تربت على كتفي ..

— ماذا ... قالت هيلين ..

لا شيء .. هل تشاهدين هذه النورية .. لقد ابتسمت إلي .. ليتها ترقص الآن ..

فابتسمت و شدت على يدي ..

* * *

مرت لحظات سريعة تأملنا فيها المكان . الزوار جلسوا على مقاعد لم يحلم احدهم أن في الدنيا مقاعد قديمة من طرازها .. وكان كل منهم مذهولا وهو يحدق بهذه المخلوقات العجيبة التي طلت وجوهها بأغرب المساحيق فبدت وكأنها وجوه دمى لا

وجود لها .. إلا في ساكرومونته ..

وكان كل شيء يوحي بجو المرح . عندما نهضت امرأة لترقص..

البوليرو:

ثم البوليرو .. فمن هذه الموسيقى ومن هذا المكان تقريباً اقتبس «فالا» الموسيقار ايقاع البوليرو الذي أدهش العالم وسحره وضع موسيقاه الفجر .. وهم يحلمون في ضوء القمر بمقدسات قلوبهم : الحب .

وتقدمت الفتاة ...

وبدأ عازف القيثار يعزف لحنه الجميل رغم عدم صحة الايقاع تماماً .. لانه يعزف كما يريد ..ويضيف مايضيف عندما يشاء ويعزف ما يعزف حسب شعوره وحسب هواه..ولكن الراقصة كانت ترقص مع اللحن .. ومع ايقاع الكاستيليتات التي وضعتها في يديها ...

وكانت رقصة .. رقصة لم أشاهد مثيلاً لها في حياتي فقد كان جسدها طوع روحها المتمردة وموسيقى عاشقها الولهان ، وكانت يداها البضتان مثالاً للحيوية والحياة فهما تتحركان وكأنهن مرتبطتان بخيط سحري مع القيثار ومع قلبها ..

وكان فمها الاحمر الجذاب يلمع كلما لعقته بلعابها..وعيناها السوداوان الملهبتان يبرقان وكأنها ينبوع حي من العواطف المتدفقه وشعرها الفاحم يغطي قسماً من جبينها ثم يغطي كل وجهها وهي تنحني محركة جسدها... ونهداها البارزان يكادان يصرخان : امرأة تنشد الحب. فهل من عاشق ؟ .. وملابسها الغجرية تغطي جسمها والحمد لله ..

المتفرجون صامتون. . والقيثار يكاد يستولي على الجميع . . والفتاة لا تزال ترقص وتغني وكأنها تقول :

كانتاريس .. اندلوسيا .. كانتاريس ..
غني ايتها الاندلس .. غني ..
فان حبيبي جلب الي بالامس وردة
وردة حمراء..

ولكن حبيبي هناك
مع امرأة .. امرأة اخرى ..
وترمي الراقصة بالوردة الحمراء على الارض ..
ثم ترقص .. وترقص ... وترقص .. ثم وترقص ولاشك بأنها رقصة الانتقـــام ..
واننا نرجو من الله أن لايدخلنا في تجارب الانتقام ..
وانتهت من رقصها بين تصفيق المتفرجين وصياح الغجر هوله .. هوله ..

. . .

انتهت الجولة الاولى ودخل مصور امريكي يلتقط الصور لقاء مبلغ من المال دفعه طبعاً سلفاً .. ووجدتها فرصة حتى انهض لالتقط بعض الصور دون استعمال مايسمى بالفلاش . لانه يسيء جداً الى الجو الخاص للصوره التي تعبر عن الغجر وهم جالسون في ضوء النور الكهربائي الضعيف .
وبدأت الجولة الثانية .. أو قل الرقصة الثانية .. التي تسمي فانداكو .. Fandango ...
وتتألف هـــذه الرقصة من اربعة من الغجر .. يتلوهم جمع منهم ويشكلون في هذه الرقصة مجموعة كاملة ولانستطيع أن نقول ان الراقصات الاربع فقط هن اللاتي يؤدين دورهن . فقد بدأن يرقصن وبدأ الغجر رجالاً ونساء يصيحون .. ثم يصيحون او ربما يصرخون ... Olé .. Olé ..
ثم ارتفع صوت .. صوت يغني .. من حنجرة قوية .. الا ان عدم التمرين ظاهر على المغني .. فالمغني لايعلم انه لايستطيع ان يستعمل صوته على احسنه وهو معطأطيء الرأس والصدر .. نحو الارض ..
وبديهي ان لانتوقع منه أن يعلم شيئاً عن قواعد الغناء
ولكنه يغني
ولكن ماذا يغني
ان علم ذلك عند ربك ولاشك فلم افهم منه شيئاً ..

الا ان صوته كان يزيد في حماس الغجريات واندفاعهن .. ويزيد في صياح « الكورس » قل وتشويشه إن شئت .. ولكن كل هـذا لا شيء فالمغني يغني على الفطرة .. والراقصات يرقصن على الفطرة .. والكورس يصيح على الفطرة .. وكانت الجولة برمتها على الفطرة .. الا انها رغم عدم قوتها كانت تلائم هذا الجو البدائي الذي تمثله الحياة هنا

ولا شك بأن الموسيقار « بيزه » قد هذب الكثير عندما اقتبس بعض الالحان والايقاعات لموسيقى كارمن ...

الا ان الروح ... الروح .. موجودة ولاشك في كل صوت يرتفع ..

وعاد الجميع كل منهم الى مكانه . وقلت مع القائلين

هولة .. هولة ..

. . . .

مضت فترة وجيزة .. خرجت بعدها الى الحلبة فتاة صغيرة تبلغ من العمر الثانية عشرة ... وبدأت تؤدي رقصتها .. رقصتها التي كانت أجمل الرقصات .. فجسدها الذي يتحرك دون ان يصغي الى الموسيقى طبعاً .. موسيقى القيثار الذي يعزف لحناً غريباً يكاد لايتجاوب مع نفسية هذه الطفلة التي تحلم ان تصبح في يوم من الايام ولاشك راقصة من راقصات هو ليود وكان الجميع يصفقون لهذه الطفلة كلما اجادت في اداء دورها .. واستعملت شعرها الكثيف الذي يغطي كافة وجهها بعض الاحيان باسلوب جميل ورشيق ..

وان كان ثمة شيء جميل في هذ الطفلة فهو يداها اللطيفتان اللتان تستعملان الكاستيلينات ببراعة فائقة ...

وانتهت الطفلة ايضاً من الرقص .. بينما كان الغجري الذي غنى في الرقصة الاولى يقترب مني محيياً ..

. . .

نظرت الى الغجري بحذر ونظرت زميلتي اليه بحذر ايضاً الا أني نسيت الحذر وأنا احاول جهدي ان اعبر له عن سروري بصوته الجميل ! وفهم مني ذلك بسرعة

فالمتملقون يبدو أنهم كثيرون ولكنه قال ان هذا الصوت .. هو من هذا القلب وأشار بيده على قلبه .. وطلب مني ان اضع يدي على قلبه ... فوضعتها وصاح Yo tengo ايو تنكو اون

وكاد قلبه يقف:

انه الحب ولاشك ..

وغمزته بعيني على الفتاة الجميلة: فقال .. لا ... وأشرت اليه بيدي من اذاً !؟فغمزني بعينه على امرأة ليس فيهاشيء من الجمال.. فقلت في قلبي .. سبحان موزع القلوب..

وضحكت زميلتي على غباوته .. ولكني ابتسمت لطيبة قلبه فالحب اعمى غالباً ..ومن يدري.. فربما وقعنا في يوم من الايام في نفس الغباوة التي وقع فيها صاحبنا

وابتسم الينا ودعانا لزيارته في اليوم الثاني لنشرب معه كأساً من النبيذ (ندفع ثمنها نحن طبعاً) فوعدته بزيارته في الغد لكي اصوره مع حبيبته...

وكانت صورة ويالها من صورة!

. . .

الغجر الآن يستعدون وقد غادر المكان البعض منهم ويبدو الصديقتي قلقة تريد ان تغادر المكان الا اني رجوتها ان تشاهد رقصة ثانية من رقصات هذه الفئة. فوافقت على ان تذهب بأسرع وقت ممكن فقد رماها الغجري بما يبدو بنظرات الشهوة.

وتقدم الغجر الى الحلبة وقال الغجري انها الكاتشوتشا. Cachucha

وتذكرت ان هذه الرقصة هي اروع واقوى رقصات قبيلة الزامبرا من الغجر ففيها يحاول الغجري ان يعبر عن حبه وتحاول الغجرية ان تعبر عن دلالها وياله من دلال ... دلال جميل للراقصة الجميلة التي نظرت اليها اول الامر .. دلال ينتهي بقبول .. قبول يشترك فيه الغجر جميعاً بالرقص تعبيراً عن سرورهم بأن الله وفق بين قلوب العاشقين في النهاية ..

وبدأ الرقص بعزف على القيثار .. وتحرك جسد الغجرية بل قل تحركت روحها . فأنا لا اكاد اصدق عيني بأن الجسد وحده هو الذي يتحرك الآن ..

وتقدم الغجري وتحرك .. بل قل تحركت روحه ايضاً فهو ولا شك عاشق .. لانه ليس في العالم برمته من يستطيع ان يعبر بحركات وجهه وانفعالات قلبه بالرقص الجميل الرائع سوى العاشق الذي يرقص مع معشوقته المتدللة .. وكانت لحظات ذهلت عيني وذهلت عينا زميلتي كما ذهلت عينا كل من كان يحملق في هذا المنظر وهكذا رقصا .. ورقصا . ورقصا .. وصفقت مع المصفقين وقلت معهم لا شعوريا .. Olé Olé .. وتمنيت في هذه اللحظة ان اكون غجرياً طالما هناك غجرية بهذا الشكل وبهذه الروح ..

وانتهت الرقصة بين التصفيق الحاد وصياح الفجر ايضا . في الساحة الواحدة تقريباً .. وشعرنا بأنه لابد لنا من العودة .. فصديقتي الفرنسية لاتتمنى ان تكون غجرية ..

. . .

لهذه الموسيقى الشعبية المعاصرة طابع خاص يختلف تمام الاختلاف عن الموسيقى الشعبية لغيرها من الامم الاوربية والسبب في هذا كما يقول الأخصائيون ان العرب الذين قطنوا جنوب اسبانيا من القرن الثامن الى القرن الخامس عشر قد تركوا للاسبان الايقاعات العربية ولا يزال هذا التأثير يشاهد بوضوح حتى في الموسيقى العربية فان بعض المقطوعات العربية لا تزال تعزف في كنيسة طليطلة ولا تزال الالحان في جنوب اسبانيا ذات طابع عربي صرف .

ان الاغنية الهندية Cante Ondo والاغنية الفلامنكو Cante Flamenco من الالحان المشهورة في الاندلس تستعمل في الرقص والغناء .

ومن الجدير بالذكر أن بعض علماء اللغة يجدون ان كلمة فلامنكو هي ذات اصل عربي تعنى فلا : فلاح..ومانكو: أغنية..مغنى.. اي اغنية الفلاح . ومغنى الفلاح الاغنية الشعبية..ولاشك بان الاصغاء الى هذا النوع من الاغاني ليذكرني ببعض

الاغاني العربية الشعبيـة التي نسمعها في الريف والتي يحيها الاخوان رحباني الآن كـ «يا رايحين مشرق» ... الخ .. وقد سمعت هذه الاغنية في الربيع في قرية الجيزة في حوران .. ان مصدر روعة هـذه الموسيقى والاغاني هو ولا شك كونهـا مقتبسة من الشعب من الاوتار التي يعزف عليها القلب .. القلب الذي يعلم معنى الالم ومعنى العاطفة لذلك تجد ان كل من يصغي اليها من الاجانب يعجب بها رغم بعدها عن موسيقاه الخاصة .. لان موسيقى القلوب عالمية .. ولا شك ..

وخلال العودة الى المدينة .. كانت عيناي المتعبتان تنظران الى الظلام الذي يخيم على غرناطة .. الى الظلام .. الذي يخيم على دمشق بعد منتصف الليل .. ظلام يتخلله بعض انوار ضئيلة .. تبـدو في غرناطة كما تبـدو في دمشق .. من المهاجرين .. من قاسيون. فيجول في خاطري .. ذكريات واية ذكريات ... ذكريات لولا تشابه الجو لما تذكرت شيئاً ..

فغرناطة هي حقاً ..

شام الاندلس .

...

في الصباح .. كان هدفنا الاول اليوم أن نتسلق السيرا نيفادا .. حسناً .. السيرا نيفاداً .. حيث نشاهد اعالي قمم اوربا .. ويستطيع المرء ان ينتقـل الى هذا الجبل بواسطة قطار يتركه بالقرب من القمة الثلجية يتأمل اروع المناظر .. متأملا الهضاب التي كانت مسرحاً لاقسى ما في التاريخ من مآسي ففي احدى هذه الهضاب ولست ادري ايها في الواقع اتذكر مقتل شاعر قصة من اعنف القصص ... قصة مقتل لوركا ..

إن رأسي يرتفع ببطء متجها نحو الافق البعيد ..

« في الساعة التي يطل فيها الضوء » متخيلاً لوركا في غرناطة .

ويطأطىء رأس نحو الارض .. قائلاً ..

ما أوحش الانسان !

الانسان الذي يقتل أخاه الانسان دون رأفه ودون تفكير فقد اعمى الحقـد

والضحية بصائر العالم .. واعدم هنا في هذه البقعة من غرناطة .. حيث كان الناس يتنزهون مستنشقين الهواء .. الذي وهبه الله .. اعدم هنا تسعة آلاف شهيد .. في سبيل .. في سبيل لا شيء ..

هنا في هذه البقعة يطاطيء رؤوس سكان غرناطة حزنا على ذويهم فقد اعدم الكتائبيون تسعة آلاف شخص .

هنا بالقرب من كرسي المغربي كما يقول (كوفون) أعدم لوركا .

قتل تسعة آلاف شخص .. وقتلت الانسانية في اعدام شخص واحد . ولد ليكون اعظم شعراء اسبانيا .. لقد اعدم لوركا ..

نعم .. لقد قتلوا فيديريكو ..
في الساعة التي يطل فيها الضوء .
ولم تكن مفرزة الجلادين .
لتجرؤ على ان تتطلع اليه وجها لوجه .
لقد اغمضوا اعينهم ،
وصلوا : ان الرب نفسه لن ينقذك .
لقد سقط فيديريكو صريعاً .
على جبينه الدم وفي احشائه الرصاص !
لقد وقعت جريمة في غرناطة !
هل تعلمون ؟
مسكينة غرناطة ..
غرناطته ! .. (١)

نعم هذه الارض التي يتأملها عابر سبيل دون ان تحرك فيه ... ساكنا هذه الاحجار المبعثرة هنا وهناك امتزجت في يوم في الايام بدماء الانسان .. ضحية الانسان ..

في هذه البقعة .. وفي كل بقعة من غرناطة يئن الناس حزنا .. فقد كانت

---
(١) انطونيو ماخادو

الجريمة اكثر من وحشية ..

لقد قتلوا شاعراً.

ولكن الشاعر كان يقول :

«الموت ! اي رقاد طويل هو ، دون احلام ودون عتمات

اريد ان اموت لارد عنك الموت.

وفي سبيل المثل الاعلى الذي كان يضيء عينيك .

ويا ايتها الحرية !. كيلا يطفىء احد شعلتك السماوية .

انا اهب نفسي بكليتها !

فلترتفع القلوب عاليا . »

الحرية ..

نعم في سبيل الحرية .. مات لوركا ودفن وفي احدى هضاب غرناطة ..

* * *

ان السيرا نيفادا رائعة وخصوصاً قراها ووديانها انها تشابه وديان لبنان وجناته .. انها تشابه ارض الوطن .. من حيث جمالها الطبيعي وانها في الواقع بحاجة ايضاً الى كتاب طويل عريض لوصفها فلنعد الى غرناطة مكتفين بذكرى لوركا هنا . ولنشاهد الحمراء قبل ان يفوتنا الوقت فلا نستمتع به كما يجدر بنا ان نستمتع به .

الحمراء

« لا أتوقع النجاح في وصف ما عجز عن وصفه الكتاب وصف هذه الاعجوبة الشرقية الرائعة »

« كلون »

وفي المحاريب أشباح تلوح لنا ... وفي المنابر أصوات تناديناا

يابرق طالع قصوراً أهلها رحلوا ... وحي أجداث أبطال منيخينا

أهكذا كانت الحمراء موحشة ... إذ كنت ترقب أفواج المفنينا

الوليد بن طعمة

الحمراء ...

الزمان يمضي مسرعاً مخلفاً وراءه الماضي، ذلك الماضي المملوء بحوادث اصبحت قصصاً يرويها المؤرخون بأساليبهم المتعددة في كتب التاريخ .. وريقات عديدة سجل عليها هذا التاريخ الحافل للانسانية جمعاء . ولكن الزمان ربما يأبى بعض الاحيان الا ان يقف فيجعل الماضي صورة من صور الحاضر الغريب .. هذا الحاضر الذي لم يدون بعد وربما لن يدون .

وكأنما العرب القدامى قد شعروا بعبقريتهم الفذة وهم يبنون الحمراء فبنوا قصراً يقول عنه موربنو : « عند ندخل جدران الحمراء يبدو اننا نمر في عالم وقف الزمان فيه فلا مر القرون العديدة ولا الهجران حتى ولا التخريب الذي قام به الانسان استطاع ان يغير في هذه البقعة التي لا شبيه لها في هذا العالم ، سحرها الساحر .. هذا السحر الناتج عن الحساسية الفنية العظمى اشعب بنى هذا البناء الخالد في هذا الموقع الفريد . »

نعم يكاد الزمان يقف ونحن ندخل قصر الحمراء .. مجتازين حدائقه الغناء مشدوهين لما نشاهد في كل زاوية من زواياه وفي كل قاعة من قاعاته التي اكاد اعجز عن وصفها بل عن وصف شعوري بها هذا الشعور الذي اكاد افقده اونا اتخيل الحوادث التاريخية التي مرت بهذا القصر ، هذا الشعور الذي كدت افقده وانا ابحث في خريطة القصر : أين انا ؟

في الحمراء ولا شك ولكن أين ؟ أوكد لك .. لست ادري ... لذلك دعنا نعود الى المدخل لنجد دليلا يسير معنا عسى ان لانضيع الطريق .. ولكن الدليل هو الشخص الثرثار الذي لا احبه فهو يتكلم عن الارقام وعن التواريخ ولست من انصار الارقام والتواريخ قدر ما أحب أن استطلع عن عواطف الناس الذين كانوا يقطنون في هذه البقعة بغض النظر عن حفظ ارقام لا اول لها ولا آخر ..

لذلك لنمش الهوينا متأملين خريطة الحمراء ولنذكر ما استطعنا مجد اجدادنا العرب الذين خلدوا حضارتهم في كل بقعة من بقاع هذا العالم ..

* * *

نحن نصعد على هضبة ظللتها الاشجار الباسقة وكأننا في غابة طبيعية لم يعمل الانسان فيها شيئاً فالاعشاب البرية قد نبتت في كل مكان بين هذه الاشجار المتدلية الاغصان والتي يصعب المرور بينها إلا ان الشمس كعادتها قد وجدت طريقاً بين الاغصان فجعلت الطريق الوحيد الذي يسير عليه طريقاً رومانتيكية يجدر بنا ان ندعوه « طريق العشاق »

طريق العشاق .. وكان الحب هو الذي يخلق كل شيء جميل في هذه البقعة فأنا لا استطيع ان أتصور طريقاً بهذا الجمال دون ان يتبادر الى ذهني صورة شاب وفتاة يسيران على هذه الهضبة صاغيين الى همسات العصافير التي تردد اغاريد الحب والجمال ، جالسين برهة بالقرب من جناح كارلوس الخامس الذي يتدفق منه الماء ناسين كل ما يتعلق بالتاريخ كما افعل انا .. مستمتعين بصوت خرير المياه وبعظمة التراث الرائع .

ونسير الهوينا .. فمن الصعب جداً الوقوف ونحن نتجه نحو الحمراء .. ان الزائر يريد ان يشاهد كل شيء بسرعة دون تردد أو تأمل عميق فالوقت لا يسمح للسائح العادي ان يجلس الساعات مناجياً أو متأملا هذه الاحجار التي ابدع صانعوها ليخلدوا ذكريات تاريخية

يسير المرء اذاً الى الامام .. حتى يصل باب العدل حيث يبدأ التراث الاسلامي الذي وهبه العرب الى اسبانيا بالظهور جلياً فيقف هؤلاء الحمقى الذين يقولون بأن العرب يهدمون المدن التي يدخلونها .. نعم يقف هؤلاء الحمقى امام باب العدل .. وربما راجين من الله ان يهبهم المقدرة على التميز بين الاشياء فيقولون مبتعدين عن التعصب الاعمى .. العرب امة تبني القصور وتسمي المدخل الرئيسي لهذه القصور :

باب العدل ..

نعم نحن امام باب العدل حيث كتب ما يعني ان كل ما في داخل هذه الابواب هو ملك لله .. ولله وحده الله الذي يحيي والله الذي يميت والله الذي يهب الناس الحب فلا يفهمون .. لقد كتب على الباب :

« أمر ببناء هذا الباب المسمى بباب الشريعة اسعد الله به شريعة الاسلام كما جعله فخراً باقياً على الايام مولانا أمير المؤمنين السلطان المجاهد العادل ابو الحجاج يوسف بن مولانا السلطان المجاهد المقدس ابي الوليد بن نصر كافى الله في الاسلام صنائعه الزاكية وتقبل اعماله الجهادية فشيد ذلك في شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة جعله الله عزه دائبة و كتبه في الاعمال الصالحة الباقية » .

يقرأ المرء هذا اذا كان يحب الطالعة ! .. ثم يجتاز باب العدل الى حديقة غناء حيث يشاهد بناء متصاعداً الى السماء يسمى بالقصبة : القلعة التي بنيت للدفاع عن الحمراء وبالقرب منها القصر العربي الذي كان مسرحا لحياة العرب وابداعهم...

أين نبدأ جولتنا ... ! لكل مكان أثري مدخل .. أمامنا فلست أدري أين هو المدخل .. وأين نبدأ !! ... بزيارة القصبة أو القصور الملكية .. أو القلعة ... أو .. الخ ولكل من هذه الاماكن مداخل رائعة كل منهم يغرينا على الدخول اولاً .. الناس يسيرون الهوينا متجهين نحو القصر العربي فلنسر معهم اذا متجهين نحو القصر ولنشاهد في طريقنا ما يسمى الآن Puerto del vino حيث يقرأ الانسان :

الملك الدائم والعز القائم

اليمن والاقبال .. وبلوغ الامال .. الخ ..

ولكن الناس يتجهون إلى الامام نحو القصر العربي Placio Arabe

القصر العربي حقاً ...

كيف يبدأ المرء أيضاً وكيف ينتهي .. من اين يدخل ومن اين يخرج .. ولكن الدهشة والعجب تجعلاه يسير دون شعور من قاعة الى قاعة .. وكلما بلغ العجب به منتهاه يتذكر أن يسأل عن اسم القاعة التي وجد فيها ... يسمع اسما يضفي على مايشاهد روما نتيكية جديدة ...

اين نحن الآن .. في قاعة العدل التي بناها السلطان يوسف الاول في اواخر القرن الرابع عشر ... ولكن لاصوت .. لاصوت للعدل في هذه الايام ....

صمت ... صمت مطبق ورهبة غريبة .. وحزن عميق يشعر به الانسان وهو يتأمل هذه الاحجار الملونة .. الصامتة .. لولا بعض كتابات عربية تجعل

هذا الانسان يقف قليلا وهو يتأملها ويتذكر هؤلاء الذين كتبوها ...

« ولا غالب الا الله ...

ولا غالب الا الله ..

نعم وما بكم من نعمة فمن الله ... وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم والحمد لله على نعمة الاسلام ... »

في كل مكان وفي كل بقعة في كل زاوية وعلى كل حجر يقرأ المرء صامتاً ..

ولا غالب الا الله ..

نعم لاغالب الا الله ... فليعتبر المعتبرون ...

لانزال نسير خبط عشواء .. لقد وضعنا الخطط في جبيننا .. أين نحن الآن أيضاً ... في قاعة السفراء ..

ومن يصف قاعة السفراء بأحسن ممن عاصر صنعها وكتب على جدرانها :

الله

الحمد لله ... فقت الحسان بحليتي وبتاج

وهوت الى الشهب في الابراج

يبدو اناء الماء في كعابد

في قبلة المحراب قام بناج :

ضمنت على مر الزمان مكارمي

قام بتاج من يأزي ؟.. القبة .. في قاعة السفراء ..

تحييك مني حين تصبح او تمسي

ثغور المنى واليمن والسعد والانس

هي القبة العليا ونحن بناتها

ولكن لي التفصيل والعز في جنسي

جوارح كنت القلب لاشك بينها

وفي القلب تبدو قوة الروح والنفس

تبارك من اعطى الامام محمداً

معاني زانت بالجمال المغانيا

والا فهذا الروض فيه بدائع

ابى الله ان يلقي لها الحسن ثانياً

ومنحونة من لؤلؤ شف نورها

تحلى بمرقص الجمان النواحيا

يذوب لجين سال بين جواهر

غدا امثلها في الحسن ابيض صافيا

تشابه جار للعيون بجامد

فلم قدر ايامنها كان جاريا

ألم تر ان الماء يجري بصفحها

ولكنها سدت عليه المجاريا

كمثل محب فاض بالدمع جفنه

وغيض ذاك الدمع اذ خاف واشيا

وهل هي في التحقيق غير غمامة

تفيض الى الاساد منها السواقيا

وقد أشبهت كف الخليفة اذ غدت

تفيض الى اسد الجهاد الاياديا

فيا من راى الاساد وهي روابض

عداها الحيا عن ان تكون عواديا

ويا وارث الانصار لا عن كلالة

تراث جلال تستخف الرواسيا

عليك سلام الله فاسلم مخلداً

تجدد أعياداً وتبلى أعاديا

• • •

نعم .. في قاعة السفراء قاعة السفراء التي سميت بحق بهذا الاسم ... وهي

فخورة ولاشك بما كتب على جدرانها ...

لقد بناها ابو الحجاج يوسف بن الاحمر « فعز ونصر لمولانا الملك العادل المجاهد أبي الحجاج » كما كتب على الجدار ..

نحن في قاعة السفراء .. كل شيء قد بلغ حد الكمال حتى ذلك الشعار الصغير الذي كتب على الجدار « قليل الكلام وتخرج بسلام »

ماذا يصف الانسان وماذا يكتب عن هذه النقوش المتناسقة وهذا السقف العجيب

ماذا يتأمل المرء وفي أي زاوية من زوايا القاعة يقف... ان كل ما فيها مدهش رائع ولم لا فقد بناها العرب فخرجت صورة صادقة عن فنهم ومهاراتهم .

نحن في قاعة السفراء .. القاعة التي اتفق فيها الحكام الكاثوليكيون مع كريستوف كولومبوس .. ذلك الرجل الذي اكتشف العالم الجديد ..

نحن في قاعة السفراء ... حيث يقف المرء صامتاً متأملاً محاولاً ان يتذكر فلا تنفعه الذكرى ..

في قاعة السفراء ... حيث يقف القلم عن الوصف لانه لايستطيع ان يصف الكمال بكلمات عابرات. فماذا يقول الانسان : قاعة عظيمة .. جميلة.. جذابة .. ولكن ماذا .. ماذا ايضاً .. انها اروع من كل هذا .. انها قاعة السفراء ... في قصر الحمراء بغرناطة ..

. . .

يسير المرء من هذه القاعة متجهاً نحو الحمام الذي هو في الحقيقة احد عجائب هذا القصر العجيب الذي ان لم نشاهده بأعيننا لقلنا إنه خرافة من الخرافات .

حقاً لقد اقتبس العرب في بناء هذا الحمام الاسلوب الروماني... ولكنهم بنوا حماماً فاق الحمامات الرومانية. فالمقاصير.. وأماكن الماء الحار والبارد لتجعلك تشعر بانك بحاجة الى حمام .. حمام بين هذه النقوش التي زينت المكان والتي لاتقل جمالاً وروعة عن النقوش الباقية في هذا القصر العظيم .. واما الكتابة فتكاد تكون واضحة وكأنها كتبت بالامس

وكم من عجب عاجب يسره سعد المقام الكريم
من كأبي الحجاج سلطاننا لازال في نصر وفتح عظيم

. . .

أعجب من حادث او قديم مرابض الاسد ببيت النعيم

الحام .. ولكن كيف يترك المرء بقية القاعات ويزور الحمام ... !

كل شيء مهم في هذا القصر حتى صفحة الماء في ساحة الرياحين تلك الصفحة الساكنة الهادئة وكأنها مستنقع نظيف حوى من الاسرار اغربها وأدهشها ...

صفحة الماء هادئه .. وكأنها بركة عثر عليها البدو في الصحراء فاعتنوا بها وجلسو حولها متأملين الطبيعه .. ومتأملين خالق هذه الطبيعة وخالقهم . جلسو حولها يستنشقون عبير الرياحين .. ويصغون تحت ضوء القمر الى اعاظم المغنين في الليل .. وذلك بعد ان يتضاءل صدى صوت المؤذن في الجامع المجاور ويختفي صوت الخطيب في هذا الجامع .. هذا الخطيب الذي يسير متجهاً نحو حي البائسين .. وهو يتمتم بما كتب على جدران جامع الحمراء

الحمد لله على نعمة الاسلام

وما بكم من نعمة فمن الله

في هذه اللحظات عندما تهب نسمة من نسمات الربيع الجميل ويسمع صوت جميل يقول :

يا أهل اندلس لله دركمـوا
يا أهل اندلس لله دركمـوا

ويبدأ المغنون ـ ربمـا ـ يغنون والراقصات ترقصن في خيالات الملوك الذين قطنو هذه البقعة التي كانت الجناح الخاص لحياتهم الخاصة الحالمة .. البانية .

نعم ... في ساحـــة الرياحين .. حيث المياه الساكنة توحي بالتأمل .. وبالصمت .. وخصوصاً في الظهيرة عندما تختفي الظلال من هـذه الساحة فتبدو وكأنها ساحة بنيت لشريط سينمائي وقد هجرت بعد ان مثل فيها الممثلون فبدت مهجورة .. ولكن جميلة ..

. . .

لا نزال في الحمراء .. متوجهين نحو قاعـــة بني سراج .. حيث يقف المرء لحظات خاطفات .. ربما يحمد الله لانه لايسير في الليل .. لان أرواح هذه العائلة النبيلة تحوم - كما يقول الاسبان - ليلاً شاكية الى خالقها الظلم الذي نابهم على يد السلطان ابي عبد الله آخر ملوك بني الاحمر ..

نعم .. نحمد الله اننا لانسير في الليل .. فانا ممن يؤمنون بالارواح . وممن يخافون الاشباح .. والآن لايوجد أحداً من الاشباح .. او غير الاشباح في قاعة بني سراج المظلمة التي توحي بجو الكآبة والحزن التي اضفتها الاساطير عن ارواح الفرسان الست وثلاثين الذين قتلوا هنا ..

لذلك دعنا نسير سريعاً تاركين هـــذه الغرفة التي توحي بالكآبة فتكفينا الكآبة والحزن اللذين نملك ولنتجه سريعاً الى غرفة الاختين حيث النوافذ الجميلة تصب أشعة الشمس فتعطينا جواً جميلاً ..حيث «اليمن والاقبال والسعدفي اكمال» وحيث يقرأ :

« أنا الروض قد أصبحت بالحسن حاليا .. »

ولنذهب الآن الى قاعة الملكة .. قاعة الملكات .. الملكات الجميلات اللاتي يملكن نواصي الامور ... هذا... ثم الى اين بعد كل هذا.. فالحيرة تجعل الانسان متردداً .. الى ان هناك بعض الامكنة التي لم نشاهدها بعد .. امكنة واسعة وأبنية تاريخة حوت كل منها اسطورة او أساطير وقصة او اقاصيص ولا شك بأن أقرب مكان الينا هو قصر كارلوس الخامس الذي بنى ليضاهي أبنية العرب ولكنه خرج سخيفاً مهلاً امام الابنية الباقية .. فلا يجلب الا نتباه والتفكير العميق .. ويذكرني هذا بما قاله أحد الكتاب بعد أن شاهـد الاسكوريال الذي بنى أيضاً لنفس الغاية .. « بناء ... ما أوسعه » وكأنما كبر المكان تعطي له اهمية فليس هناك من مزية للابنية التي بنيت بعد العرب سوى انها واسعة ! .

قد اكون مخطئاً في هذا ولكن هـذا شعوري نحوهـا .. فربما لم تتجاوب هذه الابنية مع نفسي لانها لاتمت الى اجدادي بصلة . لذلك نقول انها : واسعة ..

***

لانزال في الحمراء ... نعم لا نزال في الحمراء ...

وبالقرب من نافذة من نوافذ الحمراء ... نطل على المدينة الهادئة وننظر من بعيد الى ساكرومونته ... والى حي البائسين والى نهر الدارو الذي جلب مياهه العرب ..

المدينة هادئة .. فالوقت يقارب من الظهيرة .. والحر على أشده .. وهل هناك من مفر سوى العودة الى قاعات الحمراء ثم الذهاب للاستراحة في جنة العريف .. في حدائق الحمراء ..

. . .

نحن الآن في ساحة الاسود: القاعة التي كانت تشاهد حياة الملك الخاصة والتي يتباهى الكتاب في ذكر طولها وعرضها وأمامنا فانا اغض النظر عن كتابة طولها وعرضها لاقول لك إن النقوش فيها كاملة أيضاً الا أن بحيرة الماء هي عادية .. بل أقل من عادية .. مع الاسف ولكن هذا ما كان شعوري نحوها رغم ما قرأت عنها من وصف في جذاب وروعة فيها مغالاة .. فهي في الواقع عادية وربما السبب في ذلك كون العرب لم يهتموا بالتماثيل قدر اهتمامهم بالزخرفة على الاقواس البديعة الصنع والتي تؤلف هذه الساحة وكأني بالعرب لم ينسوا ان يغرسوا في هذة الساحة شجرتين من البرتقال او النارنج (ارجو المعذرة فأنا لااستطيع التميز بينهما) مما اعطى الساحة من بعض زواياها منظراً شرقياً بحتاً ..

والآن دعنا نقترب من الاسود .. انها لن تتحرك على اي حال ودعنا نشرب قليلاً من الماء .. المياه التي جرها العرب لهذا القصر من مسافات بعيدة.. الماء الذي كان العرب يشربون منه .. في هذه البقعة ... تصور ... تصور ملوك بني الاحمر يتجولون .. في هذه البقعة ... تصور ... ملوك اسبانيا يتجولون ..

التاريخ .. الزمان ... آه ما أغرب الاول وما أقسى الثاني ..

كل شيء يمضي .. يمضي مسرعا وكأنه لم يكن ..



يدرسون الرسم ... امام باب من ابواب الحمراء

ولاشيء آخر .

. . .

نحن لانزال في قصر الحمراء ..

أي حلم يحقق الانسان عندما يشاهـد الحمراء .. بل أية ذكريات يستطيع الانسان ان يعود بها الى وطنه بعد أن يشاهد أروع مابناه العرب .. أي كلمات يعبر بها عن شعوره وهواجسه .. ربما يبالغ العاشق وهو يختار كلمات رسائله الى معشوقته يطارحها الغرام.. ولكن هل يجد المرء هنا الكلمات التي يبالغ فيها في وصف الحمراء . ! أشك في ذلك .. بل لا أؤمن به لا لاني عاجز عن وصف شعوري فقد عجز من قبلي الكثيرون الذين وقفوا أمام الحمراء .. بل لان خيالي نفسه توقف .. فانا لا أملك القدرة على التخيل بأن هناك قصراً من القصور يضاهي الحمراء روعة.. وأما اذا كان خيالك أيها القارىء العزيز أوسع من خيالي فارجوك ان تتخيل القصر الذي تريد .. ثم .. ثم تسافر الى اسبانيا وتشاهد الحمراء .. حسناً .. أرجو أن يكون خيالك واسعاً لدرجة تستطيع أن تتخيل قصر الحمراء

. . .

مبالغة .. مبالغة ..

هذا ماتقوله ..

ربما .. ولكن ليس فيما اقول مبالغة .. واني لاتمنى من صميم قلبي ان يشاهد كل أخ وأخت عربيـة هذا القصر .. عسى ان يزداد حبهم لعروبتهم كما حصل لي ..

. . .

إننا لانزال في الحمراء ..

ولكن الآن الى حدائق الحمراء فدعنا نذهب هناك معاً ونستمتع بجمال الورود وباصوات الطيور ... باساطير الورود ... وأساطير الطيور ...

. . .

جنة الريف

قصر بديع الحسن والاحسان   لاحت عليه جلالة السلطان
راقت محاسن وأشرقت ذرته   وهمت سحائب جودة الهتان
رقمت يد الابداع في ارجائه   وشيا كمثل ازاهر البستان
فكان مجلسه العروس تبرجت   عند ارفاق بحسنها الفتان
وكفاه من شرف رفيع القدر ان   نال اعتناء خليفة الرحمان

من نقوش جنة الريف



مياه ... في حدائق الحمراء

حب في جنة

الاشجار الخضراء الباسقة تظلل جنة الريف وخرير المياه يسمع وكأنه يرتل اغاريد الحب واناشيد الرثاء .. والورود الحمراء تعكس الوانها في البحيرة المجاورة التي اخترنا المكوث بالقرب منها .. والزنابق الصفراء التفت برداء اوراقها الخضراء التي تبعثر عليها رذاذ من النافورة القريبة .. وعاشقان يسيران الهوينا بالقرب منا وقد علت وجهها حمرة الخجل فباعدا أيديهما عن بعضهما قليلاً وسارا بأدب متصنع مبتعدين عنا يفتشان عن مكان منعزل هادىء يتطارحان فيه احاديث الحب والغرام ..

وتساقطت وريقات من الشجرة المجاورة وسمع صوت عصفور وكأنه يغني .

واحسرتاه .. اندلوسيا .. اندلوسيا ..

واقتربت من البحيرة يمامة بيضاء تنهل من مياه البحيرة ثم طارت متجهة نحو العاشقين .

ومضت لحظات عادت اليمامة ترفرف فوق رؤوسنا مذعورة من طير غريب يتبعها ..

واليمامة المسكينة مذعورة فليس لها من معين سوى الهرب الى برج من ابراج قصور الحمراء ..

ولكن واسفاه .. لن تجد اليمامة الامير احمد هناك ليربت لها على كتفها ويدللها .. ويدعها قفصاً من ذهب ثم يسألها عن سر الحب .. عن معنى الحب .. الحب الذي اراد والده أن يمنعه عن معرفته ..

ولكن الاقدار لا تمنع الا عن الحمقى سر الحياة ..

الحب ..

لذلك وهبت الامير الشاب لطيبة قلبه وبراءة قصده .. معنى الحياة فعلمته ما أراد ان يحجب عنه الفيلسوف ابن حيان .

لقد ارسلت له الطبيعة الطائر ليتعلم منه سر الحياة .. الحب ..

* * *

ولكن من هو الامير احمد.. وماهي قصته ونحن نجلس في جنة الريف نتأمل المياه ونبحث عن وردة برية جديدة نبتت منطوية على نفسها في زاوية من زوايا الجنة ..

الامير احمد هو بطل الاسطورة التي حاكتها الاجيال عن عاشق ولهان أسر في برج عال من أبراج الحمراء ليبتعد عن الحب بعد ان صدرت اوامر والديه للفيلسوف ابن حيان بأن يعلم الامير جميع العلوم عدا علم الحب والا .. والا .. فسيقطع رأس ابن حيان .. الاستاذ الكريم الذي لا يؤمن بالحب وبسخافاته ..

ولا تزال اصداء اقصوصته ولا شك تتعالى في هذه الجنة التي لم يبنها سوى شيء واحد .. الحب ... الشعور بالحب ..

فلنستمتع بقصته اذاً ونحن نصغي الى خرير المياه وزقزقة العصافير ..

* * *

يحكى انه ولد لملك غرناطة أمير عاطفي المزاج تنبأ له المنجمون انه سيحكم البلاد حكماً رائعاً الا ان عاطفته ستسبب له المتاعب والاسفار كما تسبب كل عاطفة صادقة ..

وقرر والده الحكيم او « الاحمق » منعه عن تجارب الحب .. فبنى له قصراً منعزلا اسكنه اياه .. وطلب الى ابن حيان « الفيلسوف الذي عاش في مصر يدرس الهيروغليفية ويقوم بأبحاث بين القبور والاهرام . » طلب اليه ان يعلم ابنه كل علم عدا علم الحب ..

ولكن واسفاه عليك يا ابن حيان فالفلسفة لا تبعد ذوي الاحساس عن الحياة.. والجبر ليس الاسم لمالكي القلوب .. فكيف يتعلم احمد الامير .. علوم الطبيعة وقد ولد وولدت معه مقدراته وولد معه قلبه الكبير الذي يبحث عن الحب ..

لقد تغير الامير احمد مع الزمان فلم يعد يصغي الى صوت مدرسه الكبير .. وانما كانت اصوات العصافير وحفيف الاشجار واغاريد الطيور واشعار القلوب احب اليه من كل علم من العلوم ..

واكتشف استاذه العاقل ان للامير قلبا فقال لنفسه :

هنا انتهت الفلسفة يا ابن حيان فجهز رأسك للقطع فالامير يملك قلباً .

ونصح الامير ان يبتعد عن تجربة الحب التي تميت في بعض الاحيان .. التجربة التي قد تهدم حياة الانسان ، تعذبه وتؤرقه .. تبكيه وتؤلمه .. وتجعل منه شخصا غريباً شاذاً ..

ولكن ابى للأمير ان يبتعد عن قلبة الفياض .. فبدأ يناجي حدائق جنة الريف .. ويخرج في الليل يناجي القمر .. والنجوم ..

ولكن لا مجيب .

وليس هناك من يعلمه سر الحب العميق ..

واشفق الفيلسوف ابن حيان على الامير .. فوضعه في برج عال .. وعلمه لغة الطيور التي اجادها سليمان الحكيم .. فأجادها التلميذ النجيب وتحدث مع صقر عظيم كان قرصانا من قراصنة الهواء .. متعجرفا .. فلم ينفعه شيئاً في امور الحب ..

وتعرف بعد ذلك على البومة الحكيمة التي لا تخرج الا في الليل .. وتجيد العلوم الغامضة .. ولكن لم ينفعه هذا شيئاً ..

وتعرف على بقية الطيور .. ولكن لا .. لا من مجيب ..

وأقبل الربيع ..

وانبعثت اصوات الطيور بألحان عذاب ..

الحب .. الحب .. الحب ..

وحار الامير احمد وبدأ يسأل اخوانه من الطير عن معنى اغاريد الطيور ..

ولكن لا مجيب .. لا مجيب أيضاً .

وسأل العصفور فلم يجبه هذا لانه كان « جد مسرع » وليس لديه وقت لمثل هذه الامور فمكث وحيداً حزيناً .. الى ان اتاه الفيلسوف ابن حيان وشاهد مابه من حزن وبعد مقدمات الحديث قال الامير :

– « أخبرني اذا ايها الحكيم ؛ يا أبعد الحكماء غوراً ، ما طبيعة هذا الشيء الذي يسمي الحب .. ؟ فاصفر وجه ابن حيان وسأل الامير من أين تعلمت هذه الكلمة « التافهة الرخيصة » فقاد الامير ابن حيان الى نافذة البرج وقال له : ألق بسمعك يا ابن حيان ..

فأنصت الحكيم وكانت البلابل في اسفل البرج تغني لحبيبها الورد .

الحب .. الحب .. الحب ..

فصاح ابن حيان .

– « الله اكبر .. الله اكبر .. من ذا الذي يحفظ هـذا السر بمنأى عن قلب الانسان ؟

أيها الامير الشاب « الحب هو مصدر نصف العلل . . انه سراب .. ليحفظك الله من هذا الحب . . ايها الامير وذهب ابن حيان .. تاركاً الامير في هم عظيم . .

الا ان الله العظيم لا يحرم نعماءه عن ذوي القـلوب فأرسل له يمامـة السلام . . جريحة فداواها الامير وأودعها في قفص من ذهب .. وقدم لها افخر الطعام . .

ولكن اليمامة لا تزال حزينة ..

فسألها احمد .. ما بك .. وانت في نعماء . .

واجابت اليمامة الشريفة .. ما فائدة الطعام الانيق .. والحياة الرغيدة . . وانا بعيدة عن شريك حياتي .. بعيدة عن الحب ..

وصاح احمد الامير .. اتعرفين الحب . . كم انت سعيدة يا يمامة .. ألا بربك خبريني ما هو هذا الحب !

– « الحب أيها الامير هو شقاوة لفرد وهناءه لاثنين والخصومة والشحناء لثلاثة .. انه السحر الذي يؤلف بين حيين ويربط بينها برباط من العاطفـــة الهنية .. هو السعادة ما عاشا معاً والشقاء اذا انفصلا .. ألم تحب بعد ؟ » .

– أحب معلمي العجوز ابن حيان ..

– ليس هذا حبا .. ايها الامير .. « تطلـع فيما حولك .. وانظر كيف تزخر الطبيعة بالحب فى هـذا الفصل من السنة .. فلـكل مخلوق أليفـه فأقل

الطيور شأناً يغني لاليفه حتي الخنفساء تألف حبيبها بين التراب.. وتلك الفراشات التي تراها ترفرف عالياً وتلعب في الهواء.. سعيدة يحب بعضها بعضاً.. واحسرتاه ايها الامير ... ! - أليس لك مخلوق لطيف من الجنس الآخر .. انك تضيّع عمرك عبثاً ..

وتنهد الامير وقال : أنت حرة يا يمامة اما انا فسجين لا اعرف الحب ..

اذهبي .. اذهبي ..

وطارت اليمامة ..

وأجزى الله الامير خيراً فقد عادت اليمامة اليه تصف له أميرة من اجمل الاميرات تقطن في قصر من أروع القصور وتتنزه في جنة من أروع الجنات ..

وحرك وصف اليمامة نار الحب في قلب الامير .. فكتب اجمل الرسائل وسجل اجمل الاشعار .. وأرسل الطائر الى السهول ليرسل للحبيبة اجمل الرسائل والزهور :

وطارت اليمامة .

ولكنها لم تعد .. فجلس يشكي أمره الى الله الذي استجاب النداء .. اذ هبطت اليمامة وفي جسدها سهم ضربه لعين فماتت اليمامة في يد الامير ..

ولكن الرسالة جعلته يبكي فأيقونة الاميرة الجميلة تحوي على صورة صاحبتها الرائعة .. وكانت الايقونة في الحقيقة خير رسالة لخير حبيب ..

وقرر الامير أن يهجر قصره اللعين واستشار بذلك البومة التي تعلم مسالك الارض من مشارقها الى مغاربها .

ولم تضن عليه بمعلوماتها بعد ان علمت انه سيصبح ملكاً من ملوك الزمان .

وهرب الامير تحت جنح الظلام باحثا عن حسناء الملكة أميرة الامراء .

وأشارت البومة على الامير ان يلوذ باشبيلية حيث يوجد بومة تعلم مكان غراب عجوز ورث العلوم عن ساحر عظيم ..

وسار الامير متجها نحو اشبيلية .. وكان سيره في الليل .. فالبومة لا تحب السير في النهار .. وكانت البومة شغوفة بالآثار والخرائب فكان يطيب لها أن

تبحث هنا وهناك مما اعاق سير الامير. الا ان الامير وصل بعد ايام معدودات ووجد الغراب العجوز في قمة الجيرالدا المرتفعة فحادثه في امره وسخر منه هذا وقال:
اتفتش عن الحب في ارض الحب ..

ولكن لما سمع قصة الامير حزن وقال .. انا غراب لا اعرف سوي كهول النساء ولكن سافر الى قرطبة هناك ستجد تحت نخلة عبد الرحمن المعظم رحالة مغرم بالسفريات سيرشدك الى عشيقتك الحبيبة ..

وسافر الامير في الليل يناجي النجوم حتى وصل قرطبة حيث نخلة عبد الرحمن المعظم ..

وكم كانت دهشته عظيمة عندما رأى الناس يستمعون الى ببغاء خضراء ثرثارة مقنزعة قنزعة عجيبة .. ولكن بعد لحظات تعرف الامير بها وأسر لها بمكنون قلبه .. « وانفجرت الببغاء مسترسلة في قهقهة جامحة ولم تستمسك دموعها التي انحدرت من عينيها وقالت : « اعذرني على نشوتي فان مجرد ذكر الحب يثير في الضحك دائماً .. وصدم الامير الذي جاء في غير حينه وقال : « أليس الحب هو لغز الطبيعة الاعظم واصل الحياة الاكبر .. والرابطة التي تربط بين قلوب الناس » وصاحت الببغاء مقاطعة له : ما أتفه ما تقول ! بربك أين لقنت هذه الرطانة العاطفية ، صدقني ان الحب ليس حقاً من مألوف الناس ، ولن يسمع به الانسان بين جمع من العقلاء .. وقوم من المثقفين » . « وفكر الامير كيف لا تعرف هذه الببغاء الخضراء شيئاً عما يسمى الحب بينما هي تعيش في قصور الملوك وتصطنع الذكاء وتتخذ سمة الاماجد الظرفاء » .

وقدم الامير صورة الحسناء التي عرفتها الببغاء بأنها الاميرة « ديجوندا » أميرة طليطلة ..

ولم يضع الامير وقتاً فقد اغوى الببغاء لتكون رسوله الى الاميرة وسار معها ومع البومة .. نحو طليطلة .. ووصل الامير طليطلة وشاهد قصر الاميرة المنيع فأرسل رسالة مع الببغاء الذي شاهد الاميرة الحزينة تقرأ كتاب الامير ..

وخرجت الاميرة . وكادعقلها يطير . حبيبها يعيش وبا قرب من الكلمة فقالت..
آه ما أحلى الحياة-غدا ابغاء حفلة صراع الامراء لزواجي .. قولي الامير ان يدخل العراك ويفوز ... ووصل الخبر الامير فحزن حزناً عميقاً .. كيف يتغلب بجسده الضعيف على ابطال النصارى ووجدت البومة الحل .. في كهف من كهوف طليطلة سيف وحصان مسحوران سيساعدان الامير ويعطيانه امره المنشود وتخلصه من حظه المنكود الذي اجبره ان يتعلم من فيلسوف ... « فماذا تغني الفلسفة والجبر في شؤن الحب .. واحسرتاه لابن حيان »

وذهب اخونا مع البومة وجلب الحصان والسيف اللذان هزما كل من دخل العراك حتى الملك الذي اراد الثأر من هذا الاعرابي المسلم الذي اهان كل من في الميدان ..

ولكن الحصان ذهب فجأة متجهاً نحو الكهف فقد انتهت مدة التعويذة والحمد لله..
واختفى الامير ..

وحزنت الديجوندا وكادت تموت فبحث والدها عن طبيب فلم يجد فوعد ان كل من يشفي الديجوندا فله اعظم الجواهر وسيجاب الى جميع المطاليب ...

واستشار الأمير الببغاء فقالت ليس للديجوندا من شفاء سوى طلعتك ايها الامير فاذهب اليها .. »

وقالت البومة بحكمتها المرغوبة : اطلب ايها الأمير بعد ان تشفى اميرتك صندوقاً خشبياً كتب عليه طلاسم الملك سليمان اذ انه يوجد في هذا الصندوق بساط من حرير يطير بك الى أي مكان تريد .. »

فتذكر الامير بعد ان صدق البوم فقد سمع من ابن حيان خبر هذا البساط العجيب..
وقصد الملك واعدا بشفاء ابنته فصدقه هذا بعد ان ضحك الناس من هذا الاعرابي الرث الثياب

صدقه الملك لما يعلم من علم العرب في الطب العجيب ..

ودخل الامير يعزف الى معشوقته الحبيبة ما كتب لها من أشعار ..

واستجاب الله النداء .. فالله كريم ... ونظرت الاميرة الى معشوقها

الحبيب وكان شفاء ...

وكانت لحظات من أجمل اللحظات رغم عدم وجود بيانو القرن العشرين .. وموسيقا روخمانينوف التي تذيب قلب العاشق المسكين ..

ولكن حديث العيون كانت موسيقى القلوب .. فقد نظر اليها نظرات الحب الغريب الذي انبته الله في قلبه الامين ..

ونظرت اليه نظرات لم يعلم كيف يفسرها .. فهو لم يجلس قبل الآن مع ملك في غرفة وحيدة احيطت بجدران من زجاج جلس وراءه المتلصصون يصغون الى احاديث الآمور ...

كان يريد ان يقبلها ولكن آه .. لم يتزوجها بعد .. وهو العربي الذي تعلم من الطيور أحاديث الحب الشريف .. الذي ينتهي بالزواج الشريف ...

وجلس يتأملها .. وجلست تتأمله ..

وشفيت الاميرة من مرض قلبها العضال .

وطلب الامير الصندوق الخشبي فضحك العلماء من هذا الاحمق المأفون الذي طلب اغرب وارخص الامور

وضحك الامير وهو يفتح الصندوق باقرب من نافذة النور ثم يبسط ثوباً ويقول :

«انا الحاج الى كعبة الحب .. نلت ماأريد فهذه الاميرة زوجتي بأذن الله .. وسأسافر بها الى حيث أعيش سعيداً »

قال هذا وجلس والاميرة على بساط الملك سليمان وطارا بعيداً نحو غرناطة حيث تزوج الامير الاميرة الحسناء وعاشا معاً في هناء ...

وزعر الملك والد الفتاة .. وتتبع أخبارها حتى علم انها في غرناطة . فجهز جيشاً عرمرماً وذهب ليفتح غرناطة

ولكن الامير محب السلام استقبل الملك المسيحي بالترحاب وقال ان ابنته فى امان وهي ملكة الملكات ..

فسر الملك سروراً عظيما عندما علم بهذا وعاد الى طليطلة يقص على شعبها خبر هذا الحب العجيب

. . .

حب عجيب ..

نعم ولكننا لا نزال في جنـــة العريف واليمامة البيضاء تطير بالقرب منـا والعاشقان لم ينتهيا من احاديثهما . في دوحة السلطانات من الحديقة حيث نوافير المياه لازال ترسل من رذاذه المتطاير مياها تتناثر على الاوراق الخضراء فتزيدها جمالاً على جمـال ..

وتناسيت في هذه اللحظات - كالعادة - خريطة الحديقة ولم اعد آبه بتقسيماتها واسمائها قدر الاستمتاع بما يحيط بي من ورود ...

الا ان هناك بالقرب منا ممراً مغلقاً وقد كتب عليه لوحة تشير الى ان الدخول ممنوع من هذا الاتجاه .. ولم اتمالك من الابتسام لاني طبعاً لا أحب هذه الممنوعات .. لذا تقدمت مجتازا الممر الى ممر مظلل بالاشجار يشرف على حدائق واسعـة في احدى زواياها بناء يبدو مسرحاً ..

وبدأنا نتأمل الورود النامية .. في كل مكان والبحيرات الموزعة هنا وهناك عندما اعترضنا حارس المكان بأدب قائلا أن التجول هنـا ممنوع .. وان هنـاك لوحة كتب عليها ممنوع المرور فأجبناه بأننا قرأنا اللوحة وظننا ان قطف الورد هو الممنوع فضحك صاحبنا لغبائنا وسار معنا بأدب الى ممر آخر حيث اشار لنا عن طريق الخروج من جنة العريف ..

لم يكن خروجنا من جنة العريف في الواقع سوى خروجنا من غرناطة فقد بدأنا نجهز انفسنا لنسير نحو مرسية .. المدينة التي ولد فيهـا ابن عربي .. وفي ذاكرتنا وقلبنا اروع القصص عن مدينة القدر ..

ان الزمن يمضي وليس بامكاننا المكوث الى الابد في هذه المدينة .. الا اننا كنا نتمنى ان يكون الزمن طائراً كبيراً كي نرميه بسهام صلبة عسى ان يقف . كما خيل الى لوركا الشاعر عندما قال :

لو كان المساء
طائراً كبيراً
بأية سهام صلبة
كنت رميته ،
كي يغلق جناحيه !

* * *

يادائرة الساعة الحالكة
التي تثقل أهدابي
ياألم النجمة القديمة ..
التي يغص بها حلقي ..
كان على الكواكب
ان تطل على نافذتي
وعلى الازقة
وأن تفتح ببطء على الشارع الموحش
أي جهد يبذله الضوء
في مغادرة غرناطة !
انه يتلولب على اشجار السرو
او يفيض مع المياه !
وذلك الليل الذي لا يأتي
ليل الرعب والاحلام
الذي يجرحني من بعد
بسيوف طويلة ، جد طويلة ...

* * *

العودة الحالمة

انها تحلم على شرفتها
والظل على زنارها
خضراء البشرة ، خضراء الشعر
وفي عينيها اللجين البارد .
الاخضر كم احب الاخضر
وتحت القمر الغجري ،
ترنو اليها الاشياء
وهي لا تستطيع رؤية الاشياء

* * *

وعلى وجه البئر
كانت تتأرجح الغجرية
بشرة خضراء وشعر أخضر
وعينان من لجين بارد
فتحملها على وجه الماء
قطعة من جليد القمر
ويضحي الليل ، حميما
كساحة صغيرة .

« لوركا »



الفجرية الضاحكة — ساكرومونته

العودة

القطار يسير متجها نحو مرسية حيث ولد ابن عربي وحيث نتوقف قليلاً لنشاهد المدينة الهادئة التي ولد فيها هذا العبقري، ثم لنتابع السير نحو بلنسية... المدينة التي ان كنت اتذكر شيئاً عنها فأنا ولا شك بأني اتذكر الشخص الذي اجتمعنا به في القطار وكان دليلنا في هذه المدينة التي كانت ايضاً في عيد حافل .. يشبه تقريباً عيد مدينة لينيا فالليالي هي نفسها من حيث عرض نماذج للرقص الاسباني الذي تحدثنا عنه كثيراً، الا ان صداقتنا لهذا الشخص هي فريدة في نوعها فقد دعانا لنشاهد نموذجا من نماذج المنازل الاسبانية البسيطة وتذوق الطعام البلدي الذي تطبخه العائلات الاسبانية ولا يوجد في المطاعم عادة وكانت الوجبة التي تذوقناها تشابه اكلة « المجدرة » في بلدنا ويالها من وجبة .

لقد تجول معنا هذا الاسباني في بلدته ثلاثة أيام دون كلل أو ملل يحدثنا عن كل بقعة نمر بها .

انه مثال للشخص الذي يمر سريعاً فيترك في الذاكرة أروع الذكريات ..

* * *

مرسية مدينة ترحب بك .

فـ « مهما كانت الوسيلة التي تقلك الى بلنسية .

بالقطار أو بواسطة طريق السيارات.. انها ترحب بك بأجمل معالمها وطابعها.. الريف الاسباني هو معبر هنا واضح جلي .. اما سهول لا تنتهي او جبال صعبة المسالك بلنسية .. دون مبالغة هي « ابتسامة اسبانيا » رائعة بنورها الطبيعي الذي لا مثيل له .. تبتسم اليك من وسط حدائقها الغناء .. » (١)

---

(١) م . د . باربيرا في كتابه بلنسية

ان هذه المدينة كغيرها من مدن اسبانيا ذات التراث فهي مدينـة أسسها الرومان .. كما يقول المؤرخ لوكيوس فلوربوس. « ان القنصل جونيوس بروتوس أعطى جنوده قرية وأراض دعوها فلنسية وكان هذا عام ١٣٨ ق . م . »

ولقد دخل العرب هذه المدينة عام ٧١٤ ومكثوا فيها حتى عام ١٢٣٨ وقـد شهدت جنود عبد الرحمن الثالث خليفة قرطبة (٩١٢ – ٩٦١) .

* * *

لهذه المدينة تاريخ حافل . رائع .. فمعالمها تشير الى ذلك .. ولكن لياليها.. ليالي العيد فيها لتشير الى نفسية سكان هذه المدينة المرحة الذين حولوا الليـل الى نهار... نهار ضاحك راقص .. شاهدنا خلاله نماذج رائعة للرقص .. رقص سكان جزر الباليار .. سكان بالما ..

وكم كان برغبتي أن أصف هـذه الليالي .. لولا خوف التكرار .. لان ليالي بلنسية تكاد تشابه ليالي لينيا وغرناطة ..

لذلك لا بد من الايجاز .. فلم نمكث في بلنسية كثيراً ولا بد ايضاً من العودة السريعة الى برشلونة لنعود منها الى ارض الوطن ..

* * *

فلامنكو ووداع

الساعة تكاد تشير الى التاسعة . والقطار على اهبة الرحيل .. وصديقنا الاسباني يتجه نحونا مسرعاً . وفي يديه هدية الوداع . هذا الاسباني الذي يريد ان يظهر بلاده بأروع ما هي عليه .. الاسباني الفرد الذي لا تكاد تتحدث معه حتى تجد فيه صديقاً وفياً مخلصاً يؤدي لك من الخدمات مالا تستطيع فيما اعتقد ان تنساه . فهو حتى اللحظات الاخيرة التي يودعنا فيها تجده قد تأثر فعلا لفراق اصدقائه الحميمين كما يقول تجده يبتسم رغم فقره ورغم آلامه ، تجده يخصص من وقته الشيء الكثير ليتيح لك ان تشاهد مدينته وتحبها . وهو في كل هذا لا يطلب شيئاً وليس له غاية فقد الححنا عليه ان يطلب شيئاً من دمشق لنرسله اليه فاعتذر شاكراً ولكن لما بلغ منا الاصرار اننا لن نأخذ هداياه طلب ان نرسل له « أركيلة صغيرة » ليضمها الى مجموعة الغلايين التي يملكها ..

كان يبتسم لنا في اللحظات الاخيرة وهو يقول بأدب جم : أرجو المعذرة لاني لم استطع ان اساعدكما كثيراً في بلنسية ..

وكنا لا ندري ما نقول لهذا التواضع النادر .

الا ان القطار قد اسعفنا هذه المرة اذ بدأ يتحرك متجها نحو برشلونة فالواقع لم اكن اعلم ما اقول في هذه المناسبة لاني لا أجيد لغة المجاملات واللباقة ..

وبدأ يشير لنا بيده مودعا . أديوس .. أميكو Adios Amigo ـ أديوس أميكو .. وكان وداعه ووداع اكثر الاسبان الذين ودعونا حتى المحطة هو أروع لحظات وداع صادقة شهدتها خلال رحلاتي او خلال حياتي .. وداع مخلصين يتمنون به من صميم قلبهم دون رياء ودون نفاق ان اشاهدهم ثانية وان لم اتمكن

من مشاهدتهم في المستقبل ان أكون سعيداً وان اكتب اليهم ..

وفي الواقع في هذه البلاد شعرت بمعنى الصداقة الحقة والاخلاص العجيب ، شعرت بمعنى الحب الذي يكنه الانسان لأخيه الانسان .. الحب الذي لا غاية وراءه سوى الحب العميق والصداقة التي لا غاية لها سوى الصداقة .. الصداقة تلك الكلمة التي يقول أغلب الناس انها لاتوجد الا في الكتب .. ولكني لقد وجدتها في اسبانيا في كل بقعة مررنا بها .. ولم لا .. فاسبانيا هي البلاد التي اصطلح عليها علماء اللغة الانكليز بأن يقال عن من يبني قصورا في الهواء .. انه يبني قصوراً في اسبانيا .. فالاحلام .. الاحلام .. والقصور التي تبنى في الهواء توجد ولا شك في اسبانيا ..

لاني قد وجدت أحلامي وقصوري في اسبانيا .. وجدتها في قلوب هؤلاء الناس الذين لم يتطرق الغرور الى قلوبهم ، فاصبح مثلهم الاعلى في الحياة المادة والمال .. وجدت أحلامي في قلوب هؤلاء الذين يغنون وفي صوتهم قليل من حزن . وجدت احلامي في قلوب هؤلاء الذين يرقصون وفي رقصاتهم تعبير عما يكن في نفسهم من حيوية وحياة ..

انها الحياة .. الحياة في مثاليتها لقد وجدتها بين يدي الفلاح الذي يحييك تحية الصباح.. وبين يدي العامل الذي يتوقف قليلاً عن العمل ليرشدك الى الطريق وبين يدي الفتاة التي تغني لك لحناً تعلمته من اجدادها .. لقد اعجبت لهذه البساطة اي اعجاب .. فلا قيود ولا شكليات بين الناس .. كل يعيش كما يريد متمتعاً بأجمل المثل العليا .. الحب والاخاء والصداقة .. متمتعاً بأجمل المثل العليا البساطة وطيبة القلب والاخلاص .. متمتعاً بأجمل ماوهبه الله لهذه الارض : الايمان .. الايمان العميق بكل ما هو معنوي .. الايمان العميق بالله .. الايمان العميق بالحب .. الايمان العميق بالانسانية . فلا تصنع ولا تشدق ، ولا تمثيل ولا ريا .. كل يبتسم للحياة مهما بلغت من قسوة .. وكل يحترم اخيه مهما بلغ من فقر .. فليس الفقر والغنى مقياس للانسان وانما الاخلاق .. الاخلاق التي يتمتع بها

الفقير .. والاخلاق التي يتمتع بها الغني .. ان القيم الانسانية لا تزال موجودة في هذا العالم .. لا تزال موجودة بين الناس الذين لا يزالون يحافظون على تقاليدهم وعاداتهم... تقاليد اجدادهم وتراث آبائهم دون خوف ودون وجل دون تفكير في انهم رجعيين لا يقبلون الحضارة الجديدة وماديتها الوخيمة ، فهم لا يزالون يستمتعون بنفس الموسيقا التي غناها اجدادهم العرب في الاندلس . ولا يزالون يفتخرون بموسيقى الاندلس وبرقصها .. انهم لا يزالون يفتخرون بكل ما خلفه لهم اجدادهم من قيم انسانية فلا يزالون ينشدون الاشعار ، ويقيمون الاعياد ، وكأنما تحولت اسبانيا برمتها الى مدن اعياد . فأنت لا تكاد تزور مدينة او قرية من اسبانيا حتى تجد انها في عيد . عيد يكاد يتلوه عيد .. وهم يستمتعون بأعيادهم ، انها تقاليدهم على اي حال وهم يحبونها ويعيشون لاحيائها ..

لقد شاهدت كل هذا بأم عيني ويستطيع كل شخص ان يشاهد هذا اذا لم يصغ الى كتب السياحة التي تشير عليه ان يسافر في الدرجة الاولى او الثانية لان القطارات مزدحمة في الدرجة الاولى او الثانية عربات ملئت بالسواح والأكابر الذين يشاهدون اسبانيا خلال نظارات كاذبة .. نظاراتهم هم ففي الدرجة الثالثة يجتمع الانسان مع الشعب . مع شعب اسبانيا النبيل ، الشعب الذي يغني والشعب الذي تتألف منه اسبانيا اما في الدرجات الاخرى فلا يوجد الاسواح .. سواح اقول عنهم أنهم حمقى لانهم بعيدين عن اسبانيا عن الارض التي يسيرون بها دون ان يشاهدوها ..

نعم في عربات الدرجة الثالثة يشاهد الانسان الحياة .. الحياة الاسبانية ولولا الدرجة الثالثة لما اجتمعنا بهؤلاء الناس الذين علمونا دروساً في فن الحياة ...

. . .

نحن الآن في عربة من عربات الدرجـــة الثالثة - متجهين نحو برشلونة او بالاحرى متجهين نحو عودتنا الى وطننا .. الى سورية .. ولكن الله يبدو انه لا يريد ان يحرمنا حتى في لحظاتنا الاخيرة من الاستمتاع بجو اسبانيا ..

نحن مع عائلة من عائلات اشبيلية .. متجهة نحو برشلونة . ولا يوجد محلات للوالد فوقف خارج العربة تاركا المجـال لزوجه وابنتيـه ولكنهم كانوا يتبادلون الامكنة ..

ومضت لحظات سئمنا بعدها النظر من خلال النافذة الى الربوع .. ولم أجد بداً من أن أتحرش بأجلهن ..

- من أين سنيورا

- سنيورا .. لا ... سنيورتا

- عفواً - سنيوريتا .

- من اشبيلية

- اشبيلية .. آه .. ما أجملها ..

- هل زرتها

- نعم .

- هل اعجبتك ..

- طبعاً وخصوصاً رقصها .. ارجو ان ترقصي لنا ..

- انا لا أجيد الرقص

- كذابة !

- كذابة ! .. قالت هذا بلهجة المستغربة لوقاحتي التي طالما تمنيت أن أتخلص منها

- عفواً .. سنيوريتا .. أنت إذاً لست من اشبيلية ..

- لست من اشبيلية

وتغير لون وجهها - وقالت اختها ...

- نحن من اشبيلية

- اذاً فكيف لا تعرفين الرقص .. هل من المعقول ان يكون هناك فتاة من اشبيلية ولا تعرف الرقص ..

وضحك الجميع .. وتدخل الوالد في الحديث .. قائلاً

- ان ابنتي تجيد الرقـص والغناء .. والتفت اليها طالباً ان تغني وترقـص .

ومضت لحظات بين دلال الاختين .. واذا بالام تنهض وترقص .. ونهضت الفتاة ترقص بعد ان اعطيت قيثاري الى الاب الذي بدأ يعزف لابنته ..

ومضت لحظات رقصت فيها الاخت الكبيرة فلامنكو .ثم رقصت الصغيرة بعد ان اعطيناها الكاستاليتات ومضت لحظات أخرى ... بدأنا فيها نتعلم الفلامنكو وكيفية استعمال الكاستاليتات ..

واصبحت عربتنا محط انظار الجميع .

كانت لحظات من أجمل اللحظات المرحه التي يمضيها الانسان في طريق طويل دون ان يشعر بأنه يقطع مسافات طويلة ..

كانت لحظات او قل ساعات لم نشعر بعدها الا ونحن نقترب من برشلونة ..

برشلونة ... حيث سنودع هذه العائلة المرحة وأسفاه .. ولكنهم لايعرفون برشلونة - ولايعرفون فيأي فندق ننامون. لذلك لم يكن من بد في من دعوتهم الى الفندق الذي تعرفنا عليه في زيارتنا الاولى المدينة .. وكان لابد من ان نقضي سهرتنا الاخيرة في برشلونة معهم ..

. . .

لم نكد نأخذ قسطاً بسيطاً من الاستراحة حتى خرجنا مع العائلة الى شارع الرامبلاس نتجول الهوينا ونرشد العائلة الى الاماكن الأثرية وكأننا من أهل اسبانيا ولكن يبدو أن العائلة لاتهتم بهذه الابنية قدر اهتمامها بالتفتيش عن مطعم رخيص ومكان هادىء لقضاء السهرة . والمكان الهادىء بالنسبة اليهم مقهى بسيط اما بالنسبة لنا فلم نكن نهتم كثيراً بالمطاعم او بالمقهى قدر اهتمامنا بزيارة ناد ليلي نشاهد فيها نماذج من الرقص الاسباني.. وكانت الفتاتان ترغبان في مرافقتنا في مغامرتنا هذه الا ان تعبها وعدم الحاحنا جعلاهما يصغيان الى نصيحة امهم الرشيدة التي اشارت عليهن بالاستراحة هذه الليلة فتركناهم في مطعم بسيط واتجهنا نحو الحي الصيني . ثم الى « نادي بغداد » حيث قضينا ليلة من أروع ليالي اسبانيا ، عدنا بعدها الى فندقنا مع الفجر ..

. . .

أبطال ... وثيران ..

وفي اليوم التالي كانت المدينة مغلقة. والناس في مرح ولم يبق لدينا في اسبانيا سوى هذا اليوم.. فكيف نقضيه.. لقد تعبت اقدامنا من التجوال. ومللنا الكنائس والآثار. ولم يعد بامكاننا السهر الى مابعد منتصف الليل مع الراقصات وليس هناك من مكان بناه العرب في برشلونة .. فالى أين ونحن في الظهيرة .. في الفندق .. في الفندق طبعاً منتظرين الساعة العاشرة ليلاً . لنغادر اسبانيا : الفندق .. نعم .. ولكن صاحب الفندق اللطيف .. استغرب ان نجلس في الفندق و في اخر يوم لنا في اسبانيا وفي يوم الاحد . وفي المدينة اليوم كوريداً .. Coorida

ــ كوريدا .. ماذا تعني ياسنيور ..

ــ كوريدا .. آه .. ألم تشاهد كوريدا في اسبانيا حتى الآن

ــ وما هي الكوريدا هذه ؟ ..

ــ مصارعة الثيران !

ــ مصارعة الثيران آه لقد سألنا في كل مدينة عن امكانية حضور هــذه الحفلة .. ولكن لحظنا السيء لم نستطع ان نشاهد واحدة منها .

ــ طبعاً فالكوريدا لاتكون كل يوم .. ولكن في برشلونة لابد من وجود كوريدا يوم الاحد ..

ــ هل تريد أن تشاهدها اليوم

ــ نعم .. سنيور واننا نشكرك لهذا .. فمن المؤسـف ان تترك اسبانيا دون ان نشاهد كوريدا ..

وذهبنا بعد ذلك لمشاهدة مصارعة الثيران وكانت حفلة لم أفكر مطلقاً في ان اعيدها ... فلست من انصار هذه الرياضة والحمد لله ..

فقد كنا في هذه الحفلة طوال الوقت نرقب جريمة قتل ...

نحن الآن في حلبة مصارعة الثيران وأمام جريمة قتل ...

والقاتل بطل ! والمقتول ثور ... ثور مسكين ، درب اولم يدرب ليكون ضحية لبطل ! ..

يدعون هذا رياضة ... ! وأية رياضة أن يشاهد الانسان دماء حيوان بريء تضافرت عليه قوى الانسان وتفكيره . تضافرت عليه عدة أيد .. فمنذ اللحظة الاولى التي يدخل فيها الى حلبة اللعب مسرعاً من زاوية الى زاوية بعد ان أسر في غرفة صغيرة .. يقف مبهوتاً ولاشك .. أمام الألوف التي وقفت لتشاهده وهو يموت صريعاً .. باسم الرياضة . فمنذ اللحظة الاولى التي يدخل فيها الحيوان المسكين يلاعبه الابطال حتى تنهك قواه

ولكن الثور المسكين يقف بعض الاحيان لا يتحرك .. لايريد ان يصارع أحداً ولا يصرعه أحد .

ولكن البطل ...

البطل الذي تصفق له الجماهير وهو يدخل الحلبة .. تصفر له الجماهير نفسها وهو يقف أمام ثور لايتحرك ...

ولكن البطل لايبالي ... ان الثور يجب ان يموت سواء أكان شجاعاً .. او مسكيناً

نعم نحن امام جريمة قتل .. وليقل محبو هذه اللعبة مايقولون من أشعار وليغني المغنون ماشاؤا محيين «الماتادور» المصارع . وليصف الكتاب ألبسته المزركشة الالوان . ماشاء لهم خيالهم ان يصفوا .. ولتعزف الابواق ماشاءت محيية دخول البطل ...

وليصفق الناس ماشاء لهم ان يصفقوا . للبطل الشجاع ...

ولتهتز المناديل من ثلاث وعشرين ألف يد . فرحة بانتصار البطل البطل العظيم ...

ولكن انا .. انا لا اتحرك ... فلا تزال الارض مصبوغة بالدماء الحمراء ... دماء الثور المسكين .. الذي قطعت اذناه منذ لحظه لتقدم للانسان .. البطل .

ان علامات الحزن تعلو وجهي ويداي تتحرك ببطء لتصور الضحية التي تجرها البغال على الارض .

اي منظر .. بل أي مأساة ..

ولكنهم يدعونها « فن » ويدعونها « رياضة » فن جميل ورياضة رائعة . تظهر فيها بطولة الانسان وشجاعته ..

ولكن هذه اللعبة : مظهر من مظاهر الحياة في اسبانيا لها هواتها .. ولها محبوها ولها كارهوها وقد لا يستطيع اجنبي مثلي ان يتذوقها من مرة واحدة او مرتين... ولكني شاهدت مصرع ست ثيران تألمت من أجلها . تألمت من الطريقة التي يموتون بها .. امام الألوف من الناس ...

ان أهواء الناس تختلف باختلاف امزجتهم .. رغم انني اتذوق هذا النوع من اللعب لا بد ولا شك من وصف اللعبة كما تشاهدها الالوف وتفهمها الالوف من الناس .. سواء الاسبان .. او الاجانب .. فهي . كما يقولون .. فن وشجاعة :

ان مصارعة الثيران لعبة الاسبان الوطنية يخرجها انسان شجاع وحيوان نبيل .. ولهذه اللعبة ولاشك تاريخ طويل حافل

* * *

لم يجلب احد من الفاتحين هذه اللعبة الى اسبانيا وانما ترعرعت على الارض الاسبانية منذ قديم الزمان : الا ان اليونانيين والرومان والقرطاجنيين كانوا يتذوقونها ...

ويقال ان من اوائل الذين مارسوا هذه اللعبة يوليوس قيصر وقد مارسها على الحصان

وفي القرون الوسطى كانت مصارعة الثيران تجري في ساحات البلاد و تقام من قبل المسيحيين والاسلام على السواء (كما يقول جوزيف هنريك في كتابه عن مصارعة الثيران) رغم اننا لم نقرأ في الكتب العربية ان الاسلام قد مارسو هذه اللعبة الا ان الذي نظم هذه اللعبة وأخضعها لقوانين هو الملك الفونسو العاشر (الحكيم)

وقد سار على منواله ملوك اسبانيا فقد شجعوا هـذه اللعبة والواقع ان الملوك الذين يشاهدون الناس يموتون من الجوع ولا يتركون المجال لأي مشروع اصلاحي .. لايهمهم ان يتأملو ثوراً يموت على الارض .. ضحية « الرياضة الشريفة »

لقد اصبح المصارعون يضربون الثور بواسطة رمح وهم على ظهر حصان معصوب العينين ..

هذا في اسبانيـا اما في البرتغال فانهم يلاعبون الثور بشجاعة رائعة ولكن قتله ممنـوع قانونا ولا شـك بأن التطور التـاريخي لهـذه اللعبـة في المستقبل سيمنع قتل الثور بهذا الشكل في اسبانيا أيضاً ..

هذه فكرة موجزة عن تاريخ هذه اللعبة استعرضتها قبل ان نصف المكان الذي نجلس فيه الآن..هذا المكان الذي لا يكاد المرء يجلس فيه متأملاً « حلبة المصارعة »حتى يدور بخلده انه في كولسيوم آخر بني في القرن العشرين ليمثل عليه ما كان الرومان يقومون به لبناء بجدهم على اشلاء الشهداء في الكولسيوم .. في روما حيث كانت الأسود تلتهم اجساد البشر ليستمتع الامبراطور الشريف وأعوانه بمشهد من « اروع » المشاهد التي ان دلت على شيء فإنما تدل على وحشية فئة الناس كانت تدعى بشراً

واليوم يقوم الانسان بعرض بطولته مـــع ثور ليسر بذلك نزعة الالوف المحتشدة التي تحيي فيها بطولته . ولتتيح للقلائل من أمثالي الذين يحبون شهامة الثـــور ..

لقد جلسنا في مـكاننا ننتظر وليس بفارغ الصبر ..

كانت الساعة تقارب الرابعة والالوف تدخـل من ابواب عديدة كل يأخـذ مـكانه منتظراً الساعة الرهيبة التي يشاهد فيها شيئاً جديداً ..

ولكن الحلبة لاتزال خالية

الا ان الموسيقى بدأت تعزف نشيد التورو

ودخل الأبطال بملابسهم الزاهية يحيون رئيس المـكان ويرفعون قبعاتهم الى جانبهن ... وتخلو الحلبة بسرعة

ويتوزع البعض وراء مخابيء وضعت في الساحة المستديرة ويخرج الثور ..

الثور الذي يسير من مكان الى مكان يفتش عن عدوه : الانسان ..
ولكن لا أحد ..
ويخرج له البطل
ويلاعبه برداء أحمر .. لحظات عديدة . ثم .. ثم يغرس في جسده سهمين ملونين .
ويعلو الهتاف
البطل يغرس السهمين في جسد الثور ..
وتمضي لحظات سريعات يدخل بعدها بطلان امتطيا حصانين عصبت أعينها.. واف جسدهما باللباد
ويبدأ المشهد ...
وأي مشهد !
رمح طويل في يد كل منهما .. ويتقدم الحصان كثيراً نحو الثور وتجري محاولات عديدة ..
ثم .. ثم
الرمح في جسد الثور
انه يكاد يوقف الثور في مكانه ..
ويمضي المشهد هكذا ...ويدخل الحلبة عدة ابطال يبعدون الثور المسكين . ثم يذهبون بعيداً ...
إذ يدخل .. البطل .. القاتل !
ويبدأ البطل العظيم مهارته وتمر لحظات في تصفيق حاد من الالوف...من الجماهير ثم يتبعها صفير عدم الرضاء
فالثور لم يقتل بعد ..
ويعود الصمت فجأة ...
البطل يسحب رمحه ثم يتقدم نحو الثور
وتمضي لحظات ...
البطل يتقدم والثور يتقدم

*PB-30400
5-20
C

كل شيء على مايرام

البطل يغرس الرمح في جسم الثور

فيترنح الثور ... ثم يقع على الارض صريعاً ..

فيعلو الهتاف ..

الانسان ينتصر ..

وتدخل البغال .. تجر الثور المسكين بعد ان قطعت اذناه وتعاد الكرة .. هكذا .. ست مرات ..

هذا مايشاهده المتفرج الذي لا يعلم شيئاً عن اللعبة من امثالي ..

اما الافكشيانودو أي المتحمسون لهذه الاعبة فيشاهدون شيئاً اخر .. فهم يعلمون كل شيء عن هذه اللعبة منذ اللحظة الاولى التي أعلن عنها ..

يعلمون في أية قرية ربي الثور ... وجميع الاجراءات التي تبدأ قبيل العرض الذي وصفته . فمصارعة الثيران لديهم هواية لها قوعد وشروط .

* * *

انتهت حفلة مصارعة الثيران ، وقد بدأ الظلام يرخي ستاره على برشلونة ولم يعد هناك من مفرسوى العودة الى الفندق فليس بامكاننا السفر هذه الليلة مباشرة ..

وكان من الضروري انتظار مساء اليوم التالي لنأخذ القطار الى بورت بو .. الحدود الاسبانية .. فقد مضى اليوم الاخير سريعاً ونحن نبتاع بعض الهدايا .. ولم نجد انفسنا الا ونحن نأخذ القطار في المساء .. القطار الذي يسير مسرعاً هذه المرة متجها نحو الحدود ..

* * *

الساعة تقارب الواحدة ليلاً ..

نحن على الحدود الاسبانية الفرنسية كل شيء يسير بسرعة اننا ننتقل من قطار الى قطار ... في ظلام الليل .. اين هي عربة فين تهميل .. العربة التي ستسير بنا الى حدود ايطاليا . دون توقف ... هنا في القسم الفرنسي حيث وجدنا مكاناً والحمد لله ..

كل شيء هادىء ... القطار يبدأ بالتحرك .. وداعاً اسبانيا ..
اسبانيا ارض الجمال ...

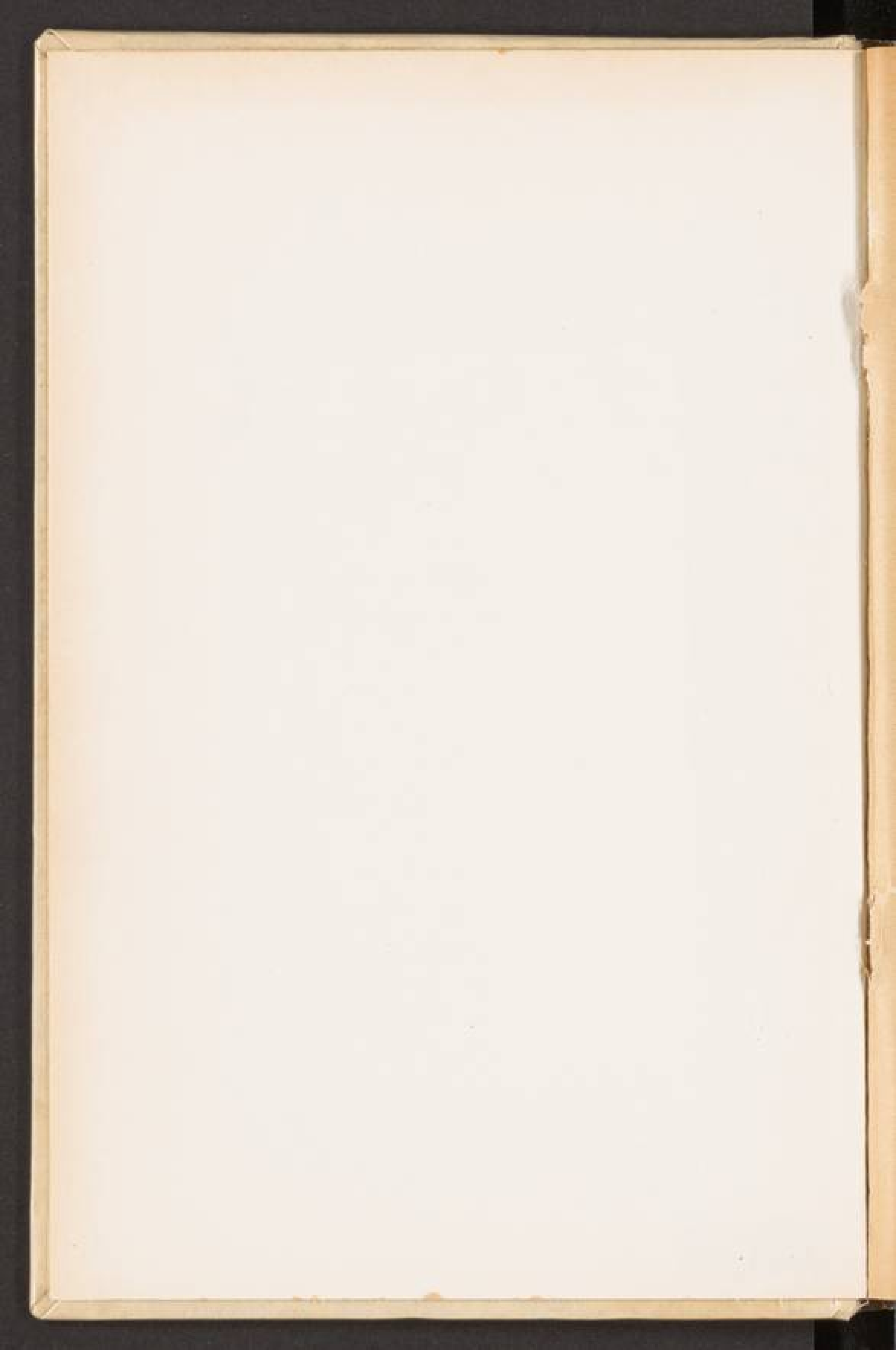
وداعاً ... ولكن قبل ان اقول وداعاً ربما الى الابد الا يحق لي ان اتساءل الآن .. ما هي اسبانيا ؟ هل هي الربوع التي سرنا بها .. هل هي الآثار التي شاهدناها من خلال نوافذ القطار .. أم هي القرى الشاعرية التي مررنا بها ... نعم انها هي ... اذا اضفنا الى ذلك شيئاً اخر هو الروح .. اسبانيا جسد وروح انها كالجسم البشري الحي يعيش ابداً طالما يملك الروح الحية .. انها ارض الغناء والرقص..ارض الادب واللباقة ارض الضيافة العربية والجمال العربي.. الذي بلغ حد الكمال في الابنية وبلغ حد الروعة في النساء...النساء اللاتي يعرفن معنى الحب والغناء والرقص..ولا شيء اخر في هذه الحياة أجمل من الحب والغناء والرقص .. الفتاة التي تغني بحزن في الحديقة..والفتاة التي ترقص بمرح في الملهى.. ترقص رقصة أجدادها الغجر وتغني أغانيهم لا بصوتها فقط وانما بروحها .. وجسدها انها تغني لتخلد حبها .. وانا لن انسى الغجرية الحسناء في جبل ساكرومونته بالقرب من غرناطة .. الغجرية التي طلبت مني ان اضع يدي على قلبها وهي تغني .. ان قلبها يكاد يقف .. انها تضحي بكل شيء في سبيل حبها .. للغجري الذي يعزف على القيثار بالقرب منها ...

وداعاً اسبانيا .. وداعاً ايتها الاصوات الحزينة المؤلمه ... وداعاً ايتها الربوع التي علمتني ان الفقر لا يمنع الانسان من الحياة ... وان البساطة والحب هما اروع شيء في هذا العالم ..

وداعاً أيتها الارض التي علمتني تاريخ اجدادي العرب . وذكرتني بمجدهم عندما كانو مخلصين عاملين يؤمنون بالله .. وبالعمل ...

نعم وداعاً .. اسبانيا وداعاً ايتها البلاد التي كانت جزءاً من وطني الكبير... العالم العربي ...

وداعاً الآن .. رغم انه ليس في الحب وداع .. لقد احببتك .. واني لارجو ان أزورك ثانية وثالثة ورابعة .. ولكن وداعاً اسبانيا ـ طالما لا بد من كلمة الوداع .. وداعاً .




NYU - BOBST
31142 02605 7706
DP42 .T3
Isbaniyah maw'ḍin al

سحابة فوق المتوسط

اسمها باليونانية نيفلة ونيفلة تعني سحابة ناصعة البياض تحلق في سماء زرقاء صافية ..

تعرف بها شاب مهاجر من وطنه ..

وأحبها ..

وأحبته ..

وعاشا معاً برهة من الزمن .. في جزر اليونان .. وفي بحيرات ايطاليا وجزرها ..

ولكن لدى المهاجر قصة حب مؤلمة ..

ولديها قصة حب مؤلمة ..

وقص كل منهما قصته على الآخر ..

قصة حياة .. حياة كاملة فياضة ..

فازداد حبهما لبعضهما وتزوجا ..

على أن يعود المهاجر الى وطنه .. وتعود هي معه الى هذا الوطن ..

وتعاهدا على الاجتماع في أثينا .. بعد أن يتم الشاب رحلته وتزور هي أهلها في سالونيكا ..

وعاد ليأخذ زوجته معه وعادت لتأخذ زوجها معها ..

ليعيشا معاً ..

ولكن ماذا حدث ؟

هذا ما ستعرفه من الرواية التي كتبها المؤلف في ثلاثمائة صفحه من القطع المتوسط ..

١٥٠ ق . س